مجلة جامعة حمص

سلسلة العلوم التاريخية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 48 . العدد 2

1448 هـ - 2026 م

الأستاذ الدكتور طارق حسام الدين رئيس جامعة حمص **المدير المسؤول عن المجلة**

أ. د. وليد حمادة	**رئيس تحرير مجلة جامعة حمص للعلوم الإنسانية**
د.نعيمة عجيب	**رئيس تحرير مجلة جامعة حمص للعلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية**

د.محمد فراس رمضان	عضو هيئة التحرير
د. مضر سعود	عضو هيئة التحرير
د. ممدوح عبارة	عضو هيئة التحرير
د. موفق تلاوي	عضو هيئة التحرير
د. طلال رزوق	عضو هيئة التحرير
د. أحمد الجاعور	عضو هيئة التحرير
د. الياس خلف	عضو هيئة التحرير
د. روعة الفقس	عضو هيئة التحرير
د. محمد الجاسم	عضو هيئة التحرير
د. خليل الحسن	عضو هيئة التحرير
د. هيثم حسن	عضو هيئة التحرير
د. أحمد حاج موسى	عضو هيئة التحرير

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة حمص

سورية . حمص . جامعة حمص . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.homs-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : journal.homs-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة حمص

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسـبة لكليات (الآداب – الاقتصـاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

ـ كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي ـ العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشـر في المجلة يدل ضـمناً على عدم نشـره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة ـ الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة ـ سنة النشر ـ وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة ـ دار النشر وتتبعها فاصلة ـ الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

ـــ بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة ـــ المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة ـــ أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة حمص

1. **دفع رسم نشر (50000) ل.س أربعون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.**
2. **دفع رسم نشر (200000) ل.س مئة الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .**
3. **دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .**
4. **دفع مبلغ (15000) ل.س ستة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.**

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
((الطب في المشرق العربي من القرن 5-7هـ/11-13م))	موسى محمد السلوم أ.د. خليل الحسين	46-11
((المشروع الوحدوي المرابطي المغربي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي))	موسى محمد السلوم أ.د. خليل الحسين	92-47
البُنية المورفولوجية عند للهوموإركتوس	د. عبد الله السليمان	144-93
الصراع المصري العثماني (1830-1840)	رشا كميل د. إبراهيم علاد الدين د. وسام عيّاش	170-145

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

بحث علمي بعنوان

((الطب في المشرق العربي من القرن 5-7هـ/11-13م))

((Medicine in the Arab East from the 5th-7th century AH/11th-13th century AD))

إعداد الطالب: موسى محمد السلوم

المشرف العلمي: أ. د. خليل الحسين

ملخص البحث

تناول البحث الحديث عن الطب في المشرق العربي من القرن 5-7هـ/11-13م، حيث ذكر البحث الطب عند العباسيين واهتمامهم به واهتموا بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان، وتأسيس البيمارستانات و الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى، وذكر أن العباسيون اعتمدوا على أطباء العراق والهند، كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد العربية

والإسلامية في موسم الحج، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون خواصها الطبية، كما وأومأ البحث إلى الحديث عن الطب في بلاد الشام حيث كان البيمارستان النوري الذي كان يعمل به عدد من الأطباء يتقلدون أحوال المرضى ويقدمون لهم الأدوية والأغذية وأن المجانين كانوا يعالجون داخل هذا المشفى وكانوا يربطون بالسلاسل، كما فصل البحث الحديث عن الطب في مصر، فذكر أن الفاطميين اهتموا بالطب والأطباء وأغدقوا عليهم الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط، ونوه البحث إلى الحديث عن السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي عني ببناء البيمارستانات في مصر، وكان الأطباء في هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقيهاً وأديباً، كما تناول البحث الحديث عن الطب زمن المماليك حيث أن السلطان قلاوون أنشأ مشفى وأنه ساعد المرضى.

Research summary

The research dealt with modern medicine in the Arab East from the 5th-7th century AH/11th-13th century AD, where the research mentioned medicine among the Abbasids and their interest in it and that they were interested in spreading medical culture and its progress by translating what the Greeks left behind, and establishing hospitals, colleges, medical schools and hospitals to graduate doctors and treat patients. It was mentioned that the Abbasids relied on doctors from Iraq and India Muslims also called for holding medical conferences in which doctors from all Arab and Islamic countries would meet during the Hajj season, where they would present the results of their research, display the plants of their countries, and describe their medicinal properties. The research also hinted at talking about medicine in the Levant, where the Bimaristan al-Nuri, where a number of doctors worked, imitated the conditions of patients and provided them with medicines and food, and that the insane were treated inside this hospital and were tied with chains The research also separated the hadith from medicine in Egypt, stating that the Fatimids were interested in medicine and doctors, showered them with money, granted them generous grants, appointed them to high positions, and they attained a high status among the men of the court. The research noted the hadith about Sultan Salah al-Din al-Ayyubi, who

was concerned with building clinics in Egypt. Doctors in this era were familiar with the most branches of knowledge, so the doctor was above his excellence in medicine as a philosopher, jurist, and writer The research also dealt with talking about medicine during the Mamluk era, as Sultan Qalawun established a hospital known as Al-Maristan and helped the disease.

● - مقدمة:

إذا كان كل بحث يلزم صاحبه بتقديم دلالات الاشتغال فيه دون سواه، فثمة من الحوافز والمبررات العلمية ما يجعل من« **الطب في المشرق العربي من القرن 5-7هـ/11-13م**» موضوعاً جديراً بالتناول من الناحية التاريخية، بالنظر إلى التطورات النوعية التي عرفها البحث التاريخي المشرقي موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

إن قوة أي حضارة تتجلى بما أنجزته من كم معرفي وثقافي وبما أسهمت به في الحضارة الإنسانية جمعاء، ومن هنا يتعاظم دورها لتصبح في مراتب الحضارات العالمية.

ولا يخفى على أحد أن الحضارات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر القديمة كان لها دورها المعرفي والرائد في العديد من المجالات الفكرية وعلى وجه الخصوص علم الطب الذي أبدعت فيه وقدمت مخزون معرفي لايزال خالداً ومنبعاً للعلم بشكل عام.

وقد حملت لواء هذا العلم الحضارة العربية الإسلامية التي كان من أهم أركانها هو البحث والتقصي والتحري وإشغال الفكر والتقدم، كما أنها لم تكن بمعزل عن التيارات الفكرية والحضارية للشعوب جمعاء، حيث استقت واستفادت ونهلت من هذا الكم المعرفي السابق لها ومن الحضارات المعاصرة ومن خلال الاندماج والتأثر والتأثير والترجمة استقت وفحصت ونقحت وجربت وعدلت ليغدو علم الطب أحد العلوم الرائدة والمتقدمة لدى العرب المسلمين، وخلد التاريخ بحروف نافرة أسماء كان لها بصماتها وإنجازاتها في هذا الحقل وما تزال أعمالهم ومؤلفاتهم مراجع علمية ومعرفية ومخزون للبشرية جمعاء يشهد بها القاصي والداني ومن هنا تتأتى أهمية دراسة علم الطب في المشرق العربي الإسلامي في الفترة ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين/ الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين في محاولة لإلقاء الضوء على ما تم إنجازه خلال هذه الفترة.

ومن الملاحظ أن الموضوع المختار كما سيتبين ينتمي في مجاله إلى المشرق العربي ويؤطره زمان يدخل في إصلاح التحقيب الزمني في نهاية الحقبة الوسطى.

كما أن اختياره أتى في إطار الاهتمام بتاريخ المشرق العربي الذي وقف على بعض قضاياه وإشكالاته خلال مرحلة الدراسة.

ولا يخفى على المتخصصين في تاريخ المشرق العربي مدى الأهمية التي تشكلها البنى التحتية للمجتمعات في الكشف عن تجليات التاريخ السياسي والثقافي والذهني لذلك المجال المتسع مكاناً وزماناً.

وهذا التوجه المنهجي الذي حرص البحث على جعله مفتاحاً للموضوع يحمل على عاتقه مهمة استجلاء الأدوار التي شغلها الطب والتي أسهمت في توضيح بعض من المعالم الأثرية في المشرق العربي خلال الحقبة قيد الدراسة، إلى جانب الدراسة المشتغل عليها.

وليس هناك حاجة إلى الإدلاء بالكثير من التفاصيل بخصوص مسوغات اختيار الحقبة الزمنية الممتدة القرن 5–7هـ / 11–13 الميلادي حيزاً للدراسة، إذ من المعلوم أن امتداد هذه الفترة يغطي مرحلة من تاريخ العصر الوسيط.

والملاحظ أن طبيعة الموضوع قد تبعد كثيراً عن الاهتمام بالتاريخ العسكري الذي طغى على تاريخ الحقبة والمتميز مثلما هو معروف بالصراعات التي دارت فيما بين القبائل في الداخل أو بين القوى الطامحة إلى قيادة المنطقة في الخارج، ولا سيما بعد تراجع الخلافة العباسية وما تلا ذلك من نتائج أسفرت عليها بعدّها نقلة نوعية آذنت بتمزق كبير في الجسم السياسي في المشرق العربي وأدت إلى ظهور زعامات سياسية تنازعت على تركة الخلافة العباسية في المشرق العربي، وهو ما أدخل المنطقة كلها بما فيها حوض البحر الأبيض المتوسط في حسابات مصلحية زادت من حدتها، المشاكل الداخلية من ثورات وهجرات ونزوح موجات بشرية وأوبئة، أثرت في مختلف الأنشطة الاقتصادية المزاولة وعرّضت المنطقة برمتها إلى مزيد من التهديدات والتحرشات الخارجية.

وإيماناً بأهمية السؤال في انتاج المعرفة، وتوليد المعاني، وإيجاد الدلالات للأشياء، مما يعني فتح منافذ وعوالم ممكنة للبحث، فقد وضع الباحث مجموعة من التساؤلات عدّها مفيدة في الإجابة على قضايا الموضوع وإشكالاته الرئيسية.

فما التمثلات الذهنية والفكرية لموضوع «الطب في المشرق العربي» في الفكر العربي الإسلامي؟ وهل « لنذرة » المقومات داخل المجال الطبيعي في المشرق العربي أثر في عدم الاهتمام المتواصل بمثل هذا الموضوع؟ ثم هل يسمح لنا تاريخ المرحلة أن نتحدث عن الطب؟ والأطباء؟ وماهي أهم البيمارستانات؟ وهل كان أصحاب السلطة والنفوذ يهتمون بالطب والأطباء؟ أم أن لكل واحد منهم اهتمامه الخاص بالطب والأطباء؟

ولما كانت المعرفة تبدأ بالسؤال، فإن طبيعة الموضوع استلزم التنقيب في مختلف المصادر لإيجاد الأجوبة الشافية عن تلك التساؤلات الافتراضية التي قد تسهم في بناء الموضوع بناءً سليماً.

إشكالية البحث:

علم الطب أحد أهم العلوم التي شغلت الفكر الإنساني منذ نشأة البشرية ومرت بمجموعة من المراحل التطورية ابتداءاً بالشعوذة والسحر وصولاً إلى الحقائق الطبية القاطعة وإجراء العمليات الجراحية المعقدة، فيا ترى هل كان للعرب نصيب من هذا العلم؟ ماهي الدوافع؟ وهل استقى العرب هذه المعارف من غيرهم كما هي أم أضافوا وعدلو؟ وما هي أبرز إنجازاتهم؟ ومن هم أشهر الأطباء في المشرق العربي الإسلامي خلال الفترة ما بين القرنين الخامس والسابع الهجري/الحادي عشر والثالث عشر الميلادي؟

أهمية البحث:

شكل الطب أحد أهم العناوين البارزة للفكر العربي الإسلامي حيث حث الإسلام كفكر وعقيدة على التفكير والتأمل وإعمال العقل والأخذ بالأسباب والتداوي، ومن هنا جاء هذا العلم كركيزة أساسية من ركائز الحياة العلمية والفكرية للحضارة العربية والإسلامية ولا سيما خلال العصر العباسي الذي شهد تطوراً لافتاً في مجال العلوم الطبية من خلال الترجمة والتأليف وظهور عمالقة في هذا المجال العلمي ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في محاولة للوصول إلى بعض الحقائق عن علم الطب وما قدمه رجالاته خلال هذه الفترة ما بين القرنين الخامس ولغاية القرن السابع الهجريين/الحادي عشر ولغاية الثالث عشر الميلاديين مع الاعتراف بأن هناك العديد من الدراسات التي سلطت الضوء على علم الطب في مختلف مراحل العصر العباسي.

الهدف من البحث:

غاية البحث توضيح أهمية الطب والأطباء في المجتمعات وكما سوف يذكر البحث أهم وأشهر الأطباء الذين كان لهم دور كبير في تلك الفترة.

منهج البحث:

لقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي وتحليل النصوص التاريخية المستقاة من مصادر مختلفة، الذي يعتمد على وصف الوضع التاريخي للمراحل التي مر بها الطب في المشرق العربي، قسمت الدراسة إلى مقدمة ومتن وخاتمة والمتن قسم إلى عدة فقرات وختمت الدراسة بعرض النتائج التي تم التوصل إليها.

● – الطب عند العباسيين:

اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان، وتأسيس البيمارستانات و الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى، ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت في جميع أرجاء الدولة العربية والإسلامية، وحذق المسلمون في صناعة الطب وتمرسوا فيها، وبرعوا في تشخيص الأمراض، وأعراضها وعلاجها ابتداءاً من الرأس إلى أخمص القدمين كما وصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها. واعتمدوا في علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية في الأدوية والعقاقير وفي أعضاء الجسم ووظائفه[1].

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند، كما اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان ومن أشهر الأسر التي برعت في الطب أسرة آل بختيشوع ومعنى بختيشوع عبد المسيح، لأن في

[1] - بك (أحمد عيسى): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1981م، ص19، 24.

اللغة السريانية البخت العبد، ويشوع عيسى عليه السلام، وكان بختيشوع يلحق بأبيه في معرفته بصناعة الطب ومزاولته لأعمالها، وخدمت هذه الأسرة الخلفاء العباسيين[1].

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد العربية والإسلامية في موسم الحج، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون خواصها الطبية، وأصبحت بغداد[2]،

في المشرق وقرطبة[3]، في المغرب أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية.

[1] – ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم ت: 669هـ/1270م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، د.م، ط1، 1882م، ج1، ص186؛ حسن (إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مصر،ط14، 1996م، ج3، ص394.

[2] – بغداد: أم الدنيا وسيدة البلاد، بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور وسماها مدينة السلام، وكان البدء في عمارتها سنة (145-149هـ/762-766م) وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم، فانتقل عنهم يرتاد موضعاً، ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها أربعة أبواب وأحكم سورها. ياقوت الحموي (ياقوت بن عبدالله ت:626هـ/1229م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، مج1، ص456-467؛ الحميري(محمد بن عبد المنعم ت:749هـ/1348م): الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص109-111.

[3] – قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سرير لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وهي أعظم مدينة بالأندلس وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة. الحموي: معجم البلدان، مج4، ص324-325؛ الحميري: الروض المعطار، ص456-458.

وقد اعتمدت معاهد الطب العلمية أو البيمارستانات على النظام المقتبس فكرة البيمارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لتفوقهم في مهنة الطب، وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم «الساعور» ومعناها بالسريانية متفقد المرضى، أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب[1]، ومن الأطباء أبو بكر الرازي محمد بن زكريا فيلسوف من الأئمة في صناعة الطب وهو عالم وموسوعة ويعد من أعظم أطباء الإنسانية، لقب« بإمام الطب وجالينوس العرب»، ولد في الري[2]، وتعلم بها سافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين، أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر في صغره، واشتغل بالكيمياء ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، تولى تدبير أمور البيمارستان في الري، ثم رياسة أطباء البيمارستان في بغداد، عمي في آخر عمره وتوفي في بغداد سنة (311هـ/923م) وله تصانيف كثيرة في الطب[3]، ومن الأطباء ابن سينا الحسين بن عبدالله، أبو علي الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، أصله من بلخ[4]، مولده في إحدى قرى بخارى[5]، نشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظر العلماء واتسعت شهرته، فأصبح أشهر من

---

(1) - بك: تاريخ البيمارستانات، ص19، 24.

(2) - الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد والأعلام المدن كثيرة الفواكة والخيرات، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً. الحموي: معجم البلدان، مج**3**، ص**116-122**.

(3) – ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج1، ص414-427؛ الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1985م، ج3، ج1، ص463؛ الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م، ج6، ص130.

(4) – بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، وهي من أجل مدنها، وأكثرها خيراً وأوسعها غلّة، تحمل غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم. الحموي: معجم البلدان، مج1، ص479-480.

(5) - بخارى: من مدن ما وراء النهر، ليس في الإسلام مدينة أحس مظهر مثل بخارى، ليس بما وراء النهر من بلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم، مع كثرة منتزهات. ابن حوقل(محمد بن حوقل ت: 367هـ/977م)**:** كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت– لبنان، 1992م، ص391؛ أبي الفداء (إسماعيل بن عمر ت: 732هـ/ 1331م): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت- لبنان، طبع في باريس1980م، ص489.

أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر، ومن له الذكاء الحاذق، والذهن الثاقب توفي سنة(428هـ/1036م)[1].

● – الطب في بلاد الشام:

أما الطب في بلاد الشام فقد قدم لنا ابن جبير صورة عن الحياة داخل البيمارستان النوري الذي كان يعمل به عدد من الأطباء يتقلدون أحوال المرضى ويقدمون لهم الأدوية والأغذية وأن المجانين كانوا يعالجون داخل هذا المشفى وكانوا يربطون بالسلاسل[2]. ومن الأطباء سكرة الحلبي: كان شيخاً قصيراً من يهود مدينة حلب وكان له دراية بالعلاج وتصرف في المداواة، ذكر أنه كان للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[3]،

(1) - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج1، ص437-459؛ الذهبي: العبر، ج2، ص258-259؛ الزركلي: الأعلام، ج2، 241.

(2) - ابن جبير(محمد بن أحمد ت: 614هـ/1217م): رحلة ابن جبير، دار صادر- دار بيروت، بيروت، 1959م، ص26، 256.

(3) - نور الدين محمود الملك العادل أبو القاسم محمود بن أتابك زنكي ابن آق سنقر التركي. تملّك حلب بعد أبيه، ثم أخذ دمشق فملكها عشرين سنة. وكان مولده في شوال سنة (511هـ/1117م)، وكان أجلَّ ملوك زمانه وأعدلهم وأدينهم وأكثرهم جهاداً، هزم الفرنجة في أكثر من موقعة، توفي سنة (569هـ/1173م). ابن الجوزي(عبدالرحمن بن علي ت: 597هـ/ 1200م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبدالقادر عطا- مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1992م، ج18، ص209-210؛ ابن الأثير(علي بن محمد ت: 630هـ/1232م):الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1987م، مج10، ص55-58؛ ابن الأثير (علي بن محمد ت: 630هـ/1232م): التاريخ الباهر في الدولة ابن تغري بردية (بالموصل)، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة - مكتبة المثنى، القاهرة- ببغداد،1963م، ص161-162؛ ابن خلكان(أحمد بن محمد ت: 681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، مج5، ص184-189؛ الذهبي: العبر، ج3، ص58؛ الذهبي(محمد بن أحمد

في قلعة حلب[1]، محظية يميل إليها كثيراً، ولكنها مرضت مرضاً صعباً وكان يعالجها جماعة من أفاضل الأطباء وأحضر إليها الحكيم سكرة الذي طلب منها أن يعالجها بمفرده، وطلب منها أن تخبره بماذا كانت تتناول في منطقتها، فأخبرته لحم البقر، فأحضر لها لحم عجل مسلوق وإلى جانبه اللبن والثوم وظل يطعمها بهذا الطعام حتى شفيت، وعندما عادت لها عافيتها أعطته صينية مملوءة حلياً فقال لها أريد مع هذا أن تكتبي إلى السلطان وتعرفيه بما كنت فيه وأنك تعافيتِ، فكتبت إلى السلطان نور الدين محمود زنكي بذلك وطلبت منه أن يحسن إليه فلما قرأ الكتاب استدعاه واحترمه وشكره وأعطاه العطايا[2]، ومن الأطباء ابن الصلاح وهو نجم الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد السري الذي كان يعرف بابن الصلاح فاضل في العلوم الحكيمة جيد المعرفة بها مطلع على دقائقها وأسرارها فصيح اللسان قوي العبارة مليح التصنيف متميز في صناعة الطب

ت:748هـ/1347م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ج39، ص371-386؛ الذهبي (محمد بن أحمد بن ت: 748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، شعيب الأرنؤوط- محمد نعيم العرق سوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985م، ج20، ص531-539؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر ت: 774هـ/1373م): البداية والنهاية، تح: عبدالله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الاسلامية بدار هجر، هجر، ط1، 1998م، ج16، ص480-493؛ ابن إياس (محمد بن أحمد ت:930هـ/1523م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م، ج1، ص240-241؛ الزركلي: الأعلام، ج7، ص170.

[1] – حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء، وهي قصبة جند قنسرين، وحلب بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان. الحموي: معجم البلدان، م2، ص282-283؛ الحميري: الروض المعطار، ص196-197.

[2] – ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص163-164.

وكان أعجمي الأصل من همذان[1]، قطن ببغداد ثم توجه إلى دمشق ولم يزل فيها إلى أن توفي، وكانت وفاته بدمشق سنة (540هـ/1145م)[2].

ووقفت كتب الحسبة مطولاً مع العطارة والحشائش وصنع العقاقير والأشربة، فقد عرف الشاميون أنواع متعددة من العقاقير والأشربة، واستهلكوا الأفيون والمواد المخدرة في مجالات كثيرة، وكان من مهام المحتسب مراقبة صناعة الأدوية وتعاطيها، فقد كان الناس يرتادون سوق العطارين والحشائشيين والصيادلة أكثر من سواه من الأسواق الأخرى.

يبدو أن قطاعاً كبيراً من الشعب عمل في مجالات تصنيع العقاقير والعطور والأشربة والتوابل واختصوا بها كما اختصت جماعات كثيرة ببيعها، يضاف إلى هذا أن الصيدلة والعطارة لم يكن العمل بها وقفاً على فئة محددة من الشعب (أهل الذمة) بل كانت صناعة مفتوحة لجميع الناس[3].

وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال، وهي كلبات الأضراس، ومكاوي الطحال، وكلبات العلق، وزرّاقات القولنج، وزرّاقات الذكر، ملزم البواسير، ومخرط المناخير، ومنجل النواصير، وقالب التشمير، ورصاص التثقيل، ومفتاح الرحم، زبوار النساء،

(1) – همذان: مدينة من عراق العجم وهي كثيرة المياه والبساتين والزروع، أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ. الحموي: معجم البلدان، م5، ص410-417؛ الحميري: الروض المعطار، 596.

(2) – ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص164.

(3) - الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر ت:589هـ/1193م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946م، ص42-57؛ ابن الأخوة (محمد بن محمد ت:729هـ/1328م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان- صديق أحمد عيسى المطيعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ط1، 1976م، ص199-206.

ومكمدة الحشا، وقدح الشوصة، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب، غير آلة الكحالين والجرائحيين، وللمحتسب أن يمتحن الأطباء في كتابه المعروف بمحنة الطبيب[1].

لقد كان في كل مدينة من مدن الشام بيمارستان أو أكثر وبالإضافة إليه كانت هناك حوانيت وأماكن خاصة بالذين اختصوا بالطب العام وبطب العيون(كحالة) والجراحة وجبر الكسور، وكان الناس يقصدون البيمارستان أو حانوت أحد الأطباء أو يجلبون الطبيب إلى بيوتهم للكشف على المرضى، ولجأت بعض النسوة إلى الأطباء لإسقاط الحمل لسبب ما كما حاول بعض الناس الحصول على بعض الأدوية السامة من الأطباء لأسباب خاصة بهم، ولذلك أوصي المحتسب بمراقبة الأطباء وبتوصيتهم بأن لا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، وهذه الوصايا اندرجت أيضاً على الكحالين والمجبرين والجرائحيين[2].

أما الطب عند الصليبيين فقد كان شعوذة وبتر، وظلت العدالة لديهم عن طريق المحنة والتعذيب، ومن عجيب طبهم أنهم أحضروا للطبيب فارس قد خرجت في ساقه دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فقال للفارس« أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ فقال: أعيش برجل واحد، فقال الطبيب: أحضروا فارساً معه فأساً قاطعا، وقال له اضرب ساقه بالفأس ضربة واحدة اقطعها»، فضربه الفارس أول مرة فلم تنقطع وضربه الثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وقال: «احلقوا شعر المرأة لأن في رأسها شيطان قد عشقها، فحلقوه»، وعادت تأكل من الثوم

(1) - الشيزري: نهاية الرتبة، ص98-100.

(2) - الشيزري: نهاية الرتبة، ص97-102؛ زعرور (إبراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، جامعة دمشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم تاريخ، دمشق، 1990م، ص167، 174.

والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: «الشيطان قد دخل رأسها»، فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها[1].

● – الطب في العصر الأيوبي:

وقد اهتم الفاطميون بالطب والأطباء وأغدقوا عليهم الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط، وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين.

[1] - زكار (سهيل): الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ج12، ص240-241؛ زكار (سهيل وآخرون): حروب الفرنجة الصليبية، مطبعة دار الكتاب، دمشق، 2007-2008م، ص215.

كما عني السلطان صلاح الدين الأيوبي[1]، ببناء المارستانات في مصر[2]، وكان الأطباء في هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقيهاً وأديباً. من الأطباء عفيف بن سكرة: هو عفيف بن عبد القاهر بن سكرة يهودي من أهل حلب عارف بصناعة الطب مشهور بأعمالها وجودة النظر فيها وله أولاد وأهل أكثرهم مشتغلون بصناعة الطب ولعفيف من الكتب مقالة في القولنج ألفها للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وذلك في سنة(584هـ/1188م)[3]، ومن الأطباء موفق الدين بن المطران هو العالم الفاضل موفق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران كان سيد الحكماء وأوحد العلماء وافر الآلاء جزيل النعماء أمير أهل زمانه في صناعة الطب وأكثرهم تحصيلاً لأصولها جيد المداواة لطيف المداراة عارفاً بالعلوم الحكيمة معتنياً بالفنون الأدبية وقرأ علم النحو واللغة والأدب كان

---

(1) - يوسف بن أيوب بن شاذى، موطن أسرته بلدة دوين وترجع أصولهم إلى الأكراد الراودية أحد بطون الهذيانية، وكان مولد صلاح الدين بتكريت سنة (532هـ/1137م)، وكان صلاح الدين كريماً حليماً، رحيماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً، لطيفاً، قليل التكبر، وكان يحضر عنده الفقهاء والفقراء، ويعمل لهم السماعات والأوقاف. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج7، ص139-141؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص351-367؛ الذهبي: العبر، ج3، ص 99-100؛ الذهبي: سير أعلام، ج21، ص278-291؛ اليافعي(عبدالله بن أسعد ت: 768هـ/1366م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1993م، ج3، ص333-334؛ السبكي (عبدالوهاب بن علي ت:771هـ/1369): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي – عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1992م، ج7، ص339-369؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص651-658؛ ابن دقماق (إبراهيم محمد بن أيدمر ت:809هـ/1406م): الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عبدالفتاح عاشور، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1982م، ص 224-225؛ الأتابكي(يوسف بن تغري بردي ت: 874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م، ج6، ص3-10؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص237-238؛ ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ت: 1089هـ/ 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط- محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1989م، مج6، ص488-491.

(2) - حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص492.

(3) - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص164.

مولده بدمشق وكان أبوه طبيباً متقدماً جوالاً في البلاد لطلب الفضيلة، سافر إلى بلاد الروم لإتقان الأصول التي يعتمد عليها في علم النصارى ومذاهبهم، ثم عدل بعد ذلك إلى العراق ثم إلى دمشق وبقي طبيباً بها إلى وفاته، وخدم بصناعة الطب السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد نال عنده مكانة عالية ورفيعة وحظي عنده بجاه عظيم ونال منه من المال مبلغاً كثيراً[1]،

ومن الأطباء المشهورين نظامي العروضي[2]، الذي دعاه أحد أهالي مدينة هراة[3]، لتناول العشاء في داره، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التي كانت مصدر بهجته وسروره وقال إنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر مناً(هو كيل أو ميزان وهو يساوي رطلين)، من الدم حتى تخور قواها. ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولوا علاجها، ولكن على غير جدوى، وقال إن الأطباء إذا وقفوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها، وإذا تركوه نزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك. وطلب نظامي عروضي إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته. فلما انقضت عشرة أيام جاءت أم المريضة للطبيب تخبره، فسرت معها وأحضرت البنت للطبيب، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة، فلما رأتني ارتمت على قدمي وقالت: أي أبي! أغثني لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا. فانهمر الدمع من عيني وقلت لها: طيبي نفساً فهذا أمر يسير. ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قوياً، وكذلك كان لون وجهها عادياً، وقد توفرت فيها أكثر الامور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن(يقصد سن الشباب) والفصل وهواء البلد والعادة

(1) – ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص 175-176.

(2) – نظامي العروضي: محمد بن علي بن عمر أبو حامد نجيب الدين السمرقندي ومن كتبه النجيبيات في الطب وهو أجزاء منها الأسباب والعلامات، الأدوية المفردة، ومن كتبه قوانين تركيب الأدوية القلبية، استشهد في هراة سنة(619هـ/ 1222م). الزركلي: الأعلام، مج6، ص280.

(3) - مدينة هراة: مدينة من أمهات مدن خرسان، مدينة جليلة عظيمة وفخمة وأكثر سكاناً، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء. الحموي: معجم البلدان، مج5، ص396؛ الحميري: الروض المعطار، ص594-595.

والأعراض الملائمة فدعوت فصاداً وأمرته أن يفصد عرق الباسليق في يديها، ثم أخرجت النساء من حولها، وقد خرج الدم الفاسد، وأخذت منها بالإمساك والتسريح ألف درهم من الدم، فسقطت المريضة لا تعي. فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم والطير حتى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأوهت: ثم أعددت لها شراباً مقوياً لذيذ الطعم، وعالجتها أسبوعاً حتى استعادت الدم الذي فقدته وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها[1].

ومن ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة.

ومن مشهوري الأطباء: أبو الحسن المختار بن بطلان[2]، ولد ببغداد في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وسافر في رحلات علمية إلى مصر والقسطنطينية وسورية، وألّف كثيراً من الكتب في الطب، نخص بالذكر منها كتاب «دعوة الأطباء» وقد ذكر ابن بطلان في هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغداء معه وسماع درسه عن الطب. وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما تقدم لضيفه من ألوان الطعام. وقد اشتملت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز والفطير والفاكهة، وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغطى بقماش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى. وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات الطبية التي كان يستعملها ابن بطلان، نذكر منها كلبتي الاضراس، ومكاوي الطحال، وزراقان الكولنج (هي آلة من آلات الجراحة التي تستعمل بنوع خاص للقولون (المصران الغليظ)،

---

(1) - حسن: تاريخ الإسلام، ج4،ص487-488.

(2)- المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان: طبيب باحث من أهل بغداد سافر يريد مصر، مر بحلب فأكرمه معز الدولة ثمال بن صالح، ودخل مصر سنة (441هـ/) و أ قام بها ثلاث سنوات ، ثم رحل القسطنطينية، ثم إلى أنطاكية فترهب وكان مسيحياً وسمي «يوانيس» وكان مشوه الخلقة من كتبه « دعوة الأطباء» توفي سنة (458هـ/1066م). ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج1، 325-328؛ الزركلي: الأعلام، ج7، ص191.

وقناطير التبويل(هي آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة)، وملزم البواسير(هي آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير)، ومجرف الأذن(هي آلة تستعمل لجرف الأوساخ التي تتولد بالأذن) ، ومخرط المناخير، ومخالب التشمير، ومحك الجرب، ومنشار المقطع، ومفتاح الرحم(هي آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتي تمنع الحمل إذا لم تكشط).

ومن الأطباء الذين نبغوا في عصر الأيوبيين (567-646هـ/1171-1248م) ضياء الدين عبدالله بن أحمد، المعروف بابن البيطار[1]، وقد ولد بمالقة[2]، ببلاد الأندلس ثم انتقل إلى

[1] - هو عبدالله بن أحمد المالقي، أبو محمد، ضياء الدين، المعروف بابن البيطار: إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، ولد في مالقة، وتعلم الطب، كان الحجة في معرفة أنواع النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه، وله مؤلفات كثيرة منها الأدوية المفردة في مجلدين، وله المغني في الأدوية المفردة مرتب على مداواة الأعضاء، وميزان الطبيب، والإبانة والإعلام، بما في المنهاج من الخلل والأوهام توفي سنة (646هـ/ 1248م). الكتبي (محمد بن شاكر ت: 764هـ/1362م): فوات الوفيات والذيل عليها، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت، مج2، ص159-160؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص90؛ المقري (أحمد بن محمد ت: 1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط5، 2008م، مج2، ص691-692؛ الزركلي: الأعلام، ج4، ص67؛ حتي (فيليب وآخرون): تاريخ العرب مطول، دار الكشاف للنشر والطباعة، د.م، 1951م، ج3، ص683-684.

[2] – مالقة: مدينة بالأندلس على شاطئ البحر، والبحر في جهة القبلة، وهي حسنة عامرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص43؛ أبي الفداء: تقويم البلدان، ص175؛ الحميري: الروض المعطار، ص517-518.

مصر والتحق بخدمة الملك الكامل[1]، وابنه الملك الصالح نجم الدين[2]. وكما قال السيوطي:« أوحد زمانه انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه» وله كتاب الأدوية المفردة، توفي بدمشق سنة (646هـ/1248م)[3].

ومن أشهر أطباء هذا العصر ابن النفيس العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي[4]. شيخ الطب في الديار المصرية وصاحب التصانيف الموجزة وشرح القانون وغير ذلك،

---

(1) - الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب. ولد سنة (576هـ/1180م)، وتملك الديار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة، وبعده عشرين سنة. وتملك دمشق قبل موته بشهرين وتملك حران وآمد وتلك الديار. سنة (635هـ/1237م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج5، ص79-84؛ الذهبي: العبر، ج3، ص223-224؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص71-72؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج6، ص200-265؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج7، ص 301-304.

(2) - الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل. مولده سنة (603هـ/1206م)، بالقاهرة وسلطنه أبوه على حران وآمد وسنجار وحصن كيفا، فأقام هناك إلى أن قدم وملك دمشق بعد الجواد، ثم ملك الديار المصرية، ودانت له الممالك. وكان وافر الحرمة عظيم الهيبة، توفي سنة (647هـ/1249م). الذهبي: العبر، ج3، ص 257؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص91؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص282-321؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج7، ص411-412.

(3) - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص133؛ السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكرت:911هـ/1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د.م، ط1، 1967م، ج1، ص542.

(4) - علي بن أبي الحزم القرشي، علاء الدين الملقب بابن النفيس: أعلم أهل عصره بالطب. ومولده في دمشق ووفاته بمصر، له كتب كثيرة، منها الموجز في الطب، اختصر به قانون ابن سينا، وشرح الهداية لابن سينا في المنطق والمهذب في الكحل والشامل في الطب، وشرح فصول أبقراط في الطب، وبغية الفطن من علم البدن. وتوفي سنة(687هـ/1288م). الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج2، ص211؛ ابن الوردي (عمر ت: 749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، جمعية المعارف، القاهرة- مصر، 1879م، ج2، ص234؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج2، ص284؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص318؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج7، ص701-702؛ حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله ت:1068هـ/1657م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د. ت، مج2، ص1024؛ البغدادي(إسماعيل باشا بن محمد أمين ت: 1339هـ/1920م): هدية

وكان يعد إمام الطب في زمانه، واشتهر بمؤلفاته الطبية. وهو كما وصفه السيوطي« أحد من انتهت إليه معرفة الطب» فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق[1]. وقد توفي سنة (687هـ/1288م)[2].

ومن الأمراض التي انتشرت في ذلك العصر وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة، وفي أوقات المجاعات أصيب البعض منهم بالعمى من شدة الجوع[3].

● – الطب في العصر المملوكي:

أما في زمن المماليك فقد أنشأ السلطان قلاوون[4]، مستشفى عرفت بالبيمارستان المنصوري بناه في القاهرة ملحقاً بجامع ومدرسة وعمّر قبة[5]، والبيمارستان المنصوري هو أعظم مآثره في البناء. وقد قيل أنه أوحي إلى السلطان أن يبني هذا البيمارستان خلال إقامته في البيمارستان النوري في دمشق مصاباً بوجع البطن فنذر أن ينشئ مثله في القاهرة إذا شفي من

العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د.ت،ج1، ص714؛ الزركلي: الأعلام، ج4، ص271.

(1) - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج2، ص249 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص542.
(2) - حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص487-490.
(3) - المقريزي (أحمد بن علي ت: 845هـ/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م، ج1، ق1، ص131-132.

(4) - السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون التركي الصالحي النجمي، كان من أكبر الأمراء زمن الظاهر، وتملك سنة (678هـ/1279م)، وكسر التتار على حمص، وغزا الفرنجة غير مرة، وفتح طرابلس وما جاورها، وفتح حصن المرقب، توفي سنة (689هـ/1290م). الذهبي: العبر، ج3، ص370؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص157؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص248-325؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج7، ص715.
(5) - ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ت: 808هـ/1405م): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت- لبنان، 2000م، ج5، ص462.

مرضه، وقد أكمل البناء ومنه المستشفى أقسام خاصة يفصل المرضى فيها حسب أمراضهم فالحميات في مكان خاص وهكذا الرمد والاسهال وغيرها. وفيه مختبرات وصيدلية وحمامات ومطابخ ومخازن، وكان رئيس الطبابة فيه يلقي الدروس في غرفة مجهزة باللوازم، وكان للمستشفى وقف يدر عليه ما يزيد عن مليون درهم في السنة وفيه خدمة من الرجال والنساء وأبوابه مفتوحة لمداواة المرضى من الجنسين[1]، وبلغ من مساعدة هذا السلطان للطب واتصاله الشديد بأمر معالجة المرضى وشفائهم أن أصبحت جبته المحفوظة في قبته بعد وفاته مقصد الألوف من الأولاد الخرس والنساء العاقرات والموبوئين يلمسونها مؤملين أن ينالوا الشفاء بمجرد لمسها[2]. وعلى الرغم من تقدم الطب والأطباء ووجود الصيدليات، لكن الشعب كان لديه بعض العادات المتأصلة والمتجذرة في فكره ومعتقده فكان يحن إلى المداواة عن طريق التبرك بالصالحين أو بمن يعتقدون به أنه من الصالحين.

- **الخاتمة:**

استقرت حصيلة الدراسة التي انجزت حول الطب في المشرق العربي على النتائج والاستنتاجات التالية:

1. اهتمام العباسيين بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونانيون، وبناء البيمارستانت والكليات من أجل تخريج الأطباء وعلاج المرضى.

[1] - المقريزي (أحمد بن علي ت: 845هـ/ 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم- مديحة المشرقاوي، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط1، 1998م، ج4، ص692-702.

[2] - حتي: تاريخ العرب، ص801-802.

2. من الملاحظ أن المسلمين عقدوا المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد العربية والإسلامية في موسم الحج.
3. يستشف من الدراسة أن في بلاد الشام كان الأطباء يتقلدون أحوال المرضى ويقدمون لهم الأدوية والأغذية و المجانين كانوا يعالجون داخل المشافي وكانوا يربطون بالسلاسل.
4. يستقرأ من الدراسة أن كتب الحسبة ووقفت مطولاً مع العطارة والحشائش وصنع العقاقير والأشربة، فقد عرف الشاميون أنواع متعددة من العقاقير والأشربة، واستهلكوا الأفيون والمواد المخدرة في مجالات كثيرة.
5. يستشف من الدراسة أن في بلاد الشام يبدو أن قطاعاً كبيراً من الشعب عمل في مجالات تصنيع العقاقير والعطور والأشربة والتوابل واختصوا بها كما اختصت جماعات كثيرة ببيعها، يضاف إلى هذا أن الصيدلة والعطارة لم يكن العمل بها وقفاً على فئة محددة من الشعب (أهل الذمة) بل كانت صناعة مفتوحة لجميع الناس.
6. يستقرأ من الدراسة أن الطب عند الصليبيين كان شعوذة وبتر، وظلت العدالة لديهم عن طريق المحنة والتعذيب.
7. من الملاحظ أن الفاطميين اهتموا بالطب والأطباء وأغدقوا عليهم الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط، وقد ساعد ذلك على تقدم الطب.
8. يستشف من الدراسة أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عني ببناء المارستانات في مصر، وكان الأطباء في هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقيهاً وأديباً.

9. من جملة الملاحظات التي يمكن أن تذكر أن الأمراض التي انتشرت في ذلك العصر وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة، وفي أوقات المجاعات أصيب البعض منهم بالعمى من شدة الجوع.
10. يستشف من الدراسة أنه بالرغم من تقدم الطب والأطباء ووجود الصيدليات، لكن الشعب كان لديه بعض العادات المتأصلة والمتجذرة في فكره ومعتقده فكان يحن إلى المداواة عن طريق التبرك بالصالحين أو بمن يعتقدون به أنه من الصالحين.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

1- قائمة المصادر:

1. الأتابكي (يوسف بن تغري بردي ت. 874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م.
2. ابن الأثير(علي بن محمد ت: 630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1987م.
3. ابن الأثير(علي بن محمد ت: 630هـ/1232م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة – مكتبة المثنى، القاهرة- ببغداد،1963م.
4. ابن الأخوة (محمد بن محمد ت: 729هـ/1328م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان- صديق أحمد عيسى المطيعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ط1، 1976م.
5. ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم ت: 669هـ/1270م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، د.م، ط1، 1882م.

6. ابن إياس (محمد بن أحمد ت: 930هـ/1523م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م.
7. ابن جبير(محمد بن أحمد ت: 614هـ/1217م): رحلة ابن جبير، دار صادر– دار بيروت، بيروت، 1959م.
8. ابن الجوزي(عبدالرحمن بن علي ت: 597هـ/ 1200م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبدالقادر عطا– مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1992م.
9. حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله ت: 1068هـ/ 1657م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، د. ت.
10. ابن حوقل(محمد بن حوقل ت: 367هـ/977م): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت– لبنان، 1992م.
11. الحميري(محمد بن عبد المنعم ت:749هـ/1348م): الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.
12. ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ت: 808هـ/1405م): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت– لبنان، 2000م.
13. ابن خلكان(أحمد بن محمد ت: 681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

14. ابن دقماق(إبراهيم محمد بن أيدمر ت:809هـ/1406م): الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عبدالفتاح عاشور، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1982م.
15. الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1985م.
16. الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط1، 1995م.
17. الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، شعيب الأرنؤوط– محمد نعيم العرق سوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985م.
18. الذهبي(محمد بن أحمد ت:748هـ/1347م): دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م.
19. السبكي (عبدالوهاب بن علي ت:771هـ/1369م): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي – عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1992م.
20. السيوطي(عبدالرحمن بن أبي بكرت:911هـ/1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د.م، ط1، 1967م.
21. الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر ت:589هـ/1193م): نهاية الرتبة الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946م.
22. ابن العماد(عبد الحي بن أحمد ت: 1089هـ/ 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط– محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط1، 1989م.

23. أبي الفداء (إسماعيل بن عمر ت: 732هـ/ 1331م): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت– لبنان، طبع في باريس1980م.
24. الكتبي (محمد بن شاكر ت: 764هـ/1362م): فوات الوفيات والذيل عليها، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت.
25. ابن كثير (إسماعيل بن عمر ت: 774هـ/1373م): البداية والنهاية، تح: عبدالله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الاسلامية بدار هجر، هجر، ط1، 1998م.
26. المقري(أحمد بن محمد ت: 1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، ط5، 2008م.
27. المقريزي (أحمد بن علي ت: 845هـ/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م.
28. المقريزي (أحمد بن علي ت: 845هـ/ 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم– مديحة المشرقاوي، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط1، 1998م.
29. ابن الوردي (عمر ت: 749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، جمعية المعارف، القاهرة– مصر، 1879م.
30. اليافعي(عبدالله بن أسعد ت: 768هـ/1366م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1993م.
31. ياقوت الحموي (ياقوت بن عبدالله ت:626هـ/1229م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م.

2- المراجع:

1. البغدادي (إسماعيل باشا بن محمد أمين ت: 1339هـ/1920م): هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د.ت.
2. بك (أحمد عيسى): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1981م.
3. حتي (فيليب وآخرون): تاريخ العرب مطول، دار الكشاف للنشر والطباعة، د.م، 1951م.
4. حسن(إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مصر ،ط14، 1996م.
5. الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م.
6. زعرور (إبراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، جامعة دمشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم تاريخ، دمشق، 1990م.
7. زكار (سهيل): الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م.
8. زكار (سهيل وآخرون): حروب الفرنجة الصليبية، مطبعة دار الكتاب، دمشق، 2007-2008م.

● **List of sources and references:**

1- **List of sources:**

1.Al-Atabki (Youssef bin Taghred Bardi d. 874 AH/1469 AD): The Bright Stars of the Kings of Egypt and Cairo, Egyptian National Library Press, Cairo, Egypt, 1st ed., 1935 AD.

2.Ibn al-Atheer (Ali ibn Muhammad, d. 630 AH/1232 AD): *Al-Kamil fi* al-*Tarikh* (The Complete History), The Scientific Books House, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1987 AD.

3.Ibn al-Atheer (Ali ibn Muhammad, d. 630 AH/1232 AD): The Wonderful History of the Atabegate State (in Mosul), Ed: Abdul Qadir Ahmed Tolimat, Dar Al-Kutub Al-Haditha - Al-Muthanna Library, Cairo - Baghdad, 1963 AD.

4.Ibn al-Ukhuwwah (Muhammad bin Muhammad d. 729 AH/1328 AD): *Features of Convergence in the Provisions of Hisbah*, Eds: Muhammad Mahmoud Shaaban - Siddiq Ahmed Issa Al-Muti'i, Egyptian General Book Authority, n.p , 1st ed., 1976 AD.

5.Ibn Abi Usaybiyyah (Ahmed bin Al-Qasim d. 669 AH/1270 AD): *Uyun al-Anbaa fi Tabaqat al-Otaiba*, Al-Wahhabiya Press, n.p , 1st ed., 1882 AD.

6.Ibn Iyas (Muhammad bin Ahmed, d. 930 AH/1523 AD): *Badi' al-Zuhur in Back Protection*, Ed: Muhammad Mustafa, Egyptian General Book Authority, Cairo, 1982 AD.

7.Ibn Jubayr (Muhammad ibn Ahmad, d. 614 AH/1217 AD): The Journey of Ibn Jubayr, Dar al-Sadr - Dar Beirut, Beirut, 1959 AD.

8.Ibn al-Jawzi (Rahman bin Ali d. 597 AH/1200 AD): *Al-Muntazam fi Tarikh al-Muluk wa al-Umam*, Eds: Muhammad Abd al-Qadir Atta - Mustafa Abd al-Qadir Atta, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut - Lebanon, 1st ed., 1992 AD.

9.Hajji Khalifa (Mustafa bin Abdullah d. 1068 AH/1657 AD): *Kashf al-Zanun wa-Asami al-Kutb wa al-Funun*, Dar Ihiaa al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon, n.d.

10.Ibn Hawqal (Muhammad Ibn Hawqal, d. 367 AH/977 AD): The Book of the Image of the Earth, Dar Maktabat al-Hayat, Beirut, Lebanon, 1992 AD.

11.Al-himyari (Muhammad bin Abdel Moneim d. 749 AH/1348 AD): *Al-Rawd Al-Ma'tar fi Khabar Al-Aqtar*, a geographical dictionary

with comprehensive indexes, Ed: Ihsan Abbas, Lebanon Library, Beirut, 2nd ed., 1984 AD.

12. Ibn Khaldun (Abdul Rahman bin Muhammad d. 808 AH/1405 AD): Ibn Khaldun's History Called Diwan al-Mubtada' wa al-Khabar fi History of the Arabs and Berbers and Those Who Were Their Contemporaries of Greater Importance, Dar al-Fikr, Beirut - Lebanon, 2000 AD.

13. Ibn Khallikan (Ahmad bin Muhammad d. 681 AH/1282 AD): Deaths of Notables and News of the Sons of the Age, Ed: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1968 AD.

14. Ibn Duqmaq (Ibrahim Muhammad ibn Aydamir, d. 809 AH/1406 AD): The Precious Essence in the Biography of Caliphs, Kings and Sultans, Ed: Saeed Abdel Fattah Ashour, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia, 1982 AD.

15. Al-Dhahabi (Muhammad ibn Ahmad, d. 748 AH/1347 AD): Lessons in the News of Dust, Ed: Abu Hajar Muhammad al-Saeed ibn Basyouni Zaghloul, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1985 AD.

16. Al-Dhahabi (Muhammad ibn Ahmad, d. 748 AH/1347 AD): History of Islam and the Deaths of Celebrities and Notables, Ed: Omar Abdel Salam Tadmuri, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1st ed., 1995 AD.

17. Al-Dhahabi (Muhammad ibn Ahmad, d. 748 AH/1347 AD): Biographies of Noble Figures, Shuaib al-Arna'ut - Muhammad Na'im al-Arq Soussi, Al-Resala Foundation, Beirut, 1st ed., 1985 AD.

18. Al-Dhahabi (Muhammad ibn Ahmad, d. 748 AH/1347 AD): The States of Islam, Ed: Hassan Ismail Marwa, Dar Sader, Beirut, 1st ed., 1999 AD.

19. Al-Subki (Abdul-Wahhab bin Ali, d. 771 AH/1369 AD): The Great Classes of the Shafi'is, Eds: Mahmoud Muhammad al-Tanahi – Abdul Fattah Muhammad al-Hilu, Hajr for Printing, Publishing and Distribution, 2nd ed., 1992 AD.

20. Al-Suyuti (Abdul Rahman bin Abi Bakrat, d. 911 AH/1505 AD): A Good Lecturer in the History of Egypt and Cairo, Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar Ihya al-Kutub al-Arabiyya, n.p, 1st ed., 1967 AD.

21. Al-Shizri (Abd al-Rahman ibn Nasr, d. 589 AH/1193 AD): End of Rank, Rank in the Request for Hisbah, Press of the Committee for Authorship, Translation and Publishing, Cairo, 1946 AD.

22. Ibn al-Imad (Abd al-Hayy ibn Ahmad, d. 1089 AH/1678 AD): Nuggets of Gold in News of Gold, Eds: Abd al-Qadir al-Arnaout - Mahmoud al-Arnaout, Dar Ibn Kathir, Damascus - Beirut, 1st ed., 1989 AD.

23. Abu al-Fida (Ismail ibn Umar, d. 732 AH/1331 AD): Calendar of Countries, Dar Sader, Beirut, Lebanon, printed in Paris in 1980 AD.

24. Al-Kutbi (Muhammad ibn Shakir, d. 764 AH/1362 AD): The Missed Deaths and the Appendix to Them, Ed: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, n.d.

25.Ibn Kathir (Ismail ibn Umar, d. 774 AH/1373 AD): The Beginning and the End, Ed: Abdullah ibn Abd al-Muhsin al-Turki, Center for Arab-Islamic Research and Studies, Dar Hajar, Hajar, 1st ed., 1998 AD.

26.Al-Maqri (Ahmad ibn Muhammad, d. 1041 AH/1631 AD): *Nafh al-Tayyib min Ghusn al-Andalus al-Ratib*, Ed: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, Lebanon, 5th ed., 2008 AD.

27. Al-maqrizi (Ahmed bin Ali d. 845 AH/1441 AD): Behavior to Know the Countries of Kings, Egyptian House of Books Press, Cairo, 1936 AD.

28. Al-Maqrizi (Ahmed bin Ali d. 845 AH/1441 AD): Sermons and Consideration by Mentioning Plans and Antiquities, known as Al-Khattat Al-Maqrizi, Ed: Muhammad Zeinhom - Madiha Al-Mashraqawi, Madbouly Library, Cairo, 1st ed., 1998 AD.

29. Ibn al-Wardi (Omar d. 749 AH/1348 AD): History of Ibn al-Wardi, Al-Maaref Society, Cairo, Egypt, 1879 AD.

30. Al-Yafei (Abdullah bin Asaad, d. 768 AH/1366 AD): The Mirror of Heaven and the Lesson of the Awake in Knowing What is Considered of the Events of Time, Dar Al-Kitab Al-Islami, Cairo, 2nd ed., 1993 AD.

31. Yaqut al-Hamawi (Yaqut bin Abdullah, d. 626 AH/1229 AD): Dictionary of Countries, Dar Sader, Beirut, 1977 AD.

2- **References**:

1.Al-Baghdadi (Ismail Pasha bin Muhammad Amin, d. 1339 AH/1920 AD): The Gift of the Gnostics, Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon, n.d.

2.Beyk (Ahmed Issa): History of Hospitals in Islam, Dar Al-Raed Al-Arabi, Beirut, Lebanon, 2nd ed., 1981 AD.

3.Even (Philip et al.): A Long History of the Arabs, Dar Al-Kashaf for Publishing and Printing, n.p, 1951 AD.

4.Hassan (Ibrahim Hassan): The Political, Religious, Cultural and Social History of Islam, Egyptian Renaissance Library, Cairo, Egypt, 14th ed., 1996.

5.Al-Zarkali (Khair al-Din): Al-A'lam: A Dictionary of Biographies of the Most Famous Arab, Arabist, and Orientalist Men and Women, Dar al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, Lebanon, 15th ed., 2002.

6.Zaarour (Ibrahim): Social Life in the Levant in the Ayyubid and Mamluk Eras, Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of History, Damascus, 1990.

7.Zakkar (Suhail): The Levantine Encyclopedia of the History of the Crusades, edited by Suhail Zakkar, Dar Al-Fikr, Damascus, 1995.

8.Zakkar (Suhail and others): The Frankish Crusades, Dar Al-Kitab Press, Damascus, 2007-2008 AD.

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

بحث علمي بعنوان

((المشروع الوحدوي المرابطي المغربي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي))

((The Moroccan Almoravid Unitary Project in the Middle of the Fifth Century H/ Eleventh Century AD))

إعداد الطالب: موسى محمد السلوم

المشرف العلمي: أ. د. خليل الحسين

ملخص البحث

لقد تناول البحث الحديث عن إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة، وأومأت إلى المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي، وقد تم التنويه عن ارتباط المشروع الوحدوي المرابطي بأوضاع دار الإسلام، إضافة إلى الحديث عن أثر العوامل الداخلية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي المغربي، وذكر البحث ما هي الشروط

الايديولوجية والاقتصادية والاجتماعية لميلاد المشروع الوحدوي المرابطي، وأخيراً تحدث البحث عن تعثر التجربة الوحدوية المرابطية.

Abstract

The research addressed the problem of the Almoravid unitary experience in modern studies, and referred to the unitary project at the official and popular levels. It was noted the connection between the Almoravid unitary project and the situation in Dar al-Islam, in addition to talking about the impact of internal factors and the conflict with Dar al-Harb on the birth of the Moroccan Almoravid unitary project. The research mentioned the ideological, economic and social conditions for the birth of the Almoravid unitary project, and finally the research talked about the stumbling of the Almoravid unitary experience.

1- مقدمة:

إذا كان كل بحث يلزم صاحبه بتقديم دلالات الاشتغال فيه دون سواه، فثمة من الحوافز والمبررات العلمية ما يجعل من «**المشروع الوحدوي المرابطي المغربي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي**» موضوعاً جديراً بالتناول من الناحية التاريخية، بالنظر إلى التطورات النوعية التي عرفها البحث التاريخي المغربي موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

وفي سبيل التعريف بصدد هذا الموضوع، يجدر بالبحث أن يطرح بعض الأسئلة المنهجية التي تسهم في إضاءة بعض جوانب الموضوع والإحاطة به شكلاً ومضموناً. ايماناً بأن أي بحث علمي، في أي معرفة، يتطلب جمع المعطيات، وضبط المفاهيم وتحديد الأهداف ورسم الغايات، وذلك حتى يستوي العمل على سوقه ويؤتي ثماره.

فما أهمية الاشتغال على المشروع الوحدوي المرابطي المغربي؟ وما حظه من الدراسة؟ ما هي إشكالاته؟

تتجلى القيمة المعرفية للموضوع الذي اخترناه عنواناً للدراسة بكونه يندرج في صميم البحث والتنقيب في حياة المجتمعات القديمة والكشف عن صيرورتها وحياتها اليومية في شأن الاقتصاد والاجتماع والثقافة وهي الجوانب التي شكلت معالمه التاريخية وأثرت في فصول أحداثه.

ومن الملاحظ أن الموضوع المختار كما سيتبين ينتمي في مجاله إلى المغرب الإسلامي ويؤطره زمان يدخل في إصلاح التحقيب الزمني في نهاية الحقبة الوسطى.

كما أن اختياره أتى في إطار الاهتمام بتاريخ المغرب والعصر الوسيط الذي وقف على بعض قضاياه وإشكالاته خلال مرحلة الدراسة.

ولا يخفى على المتخصصين في تاريخ المغرب الإسلامي مدى الأهمية التي تشكلها البنى التحتية للمجتمعات في الكشف عن تجليات التاريخ السياسي والثقافي والذهني لذلك المجال المتسع مكاناً وزماناً.

وهذا التوجه المنهجي الذي حرص البحث على جعله مفتاحاً للموضوع يحمل على عاتقه مهمة استجلاء الأدوار التي شغلها المشروع الوحدوي المرابطي المغربي والتي أسهمت في توضيح بعض من المعالم الأثرية في المغرب خلال الحقبة قيد الدراسة، إلى جانب الدراسة المشتغل عليها.

وليس هناك حاجة إلى الإدلاء بالكثير من التفاصيل بخصوص مسوغات اختيار الحقبة الزمنية الممتدة منتصف القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي حيزاً للدراسة، إذ من المعلوم أن امتداد هذه الفترة يغطي مرحلة من تاريخ العصر الوسيط.

والملاحظ أن طبيعة الموضوع قد تبعد كثيراً عن الاهتمام بالتاريخ العسكري الذي طغى على تاريخ الحقبة والمتميز مثلما هو معروف بالصراعات التي دارت فيما بين القبائل في الداخل أو بين القوى الطامحة إلى قيادة المنطقة في الخارج، ولا سيما بعد تراجع الخلافة العباسية وما تلا ذلك من نتائج أسفرت عليها بعدّها نقلة نوعية آذنت بتمزق كبير في الجسم السياسي في المغرب وأدت إلى ظهور زعامات سياسية تنازعت على تركت الخلافة العباسية في المغرب، وهو ما أدخل المنطقة كلها بما فيها حوض البحر الأبيض المتوسط في حسابات مصلحية زادت من حدتها، المشاكل الداخلية من ثورات وهجرات ونزوح موجات بشرية وأوبئة، أثرت في مختلف الأنشطة الاقتصادية المزاولة وعرّضت المنطقة برمتها إلى مزيد من التهديدات والتحرشات الخارجية.

ومن الطبيعي أن ينعكس الوضع العام داخل المغرب، حيث ظلت المنطقة تقاوم من أجل البقاء مستفيدة من توافر بعض المقومات وبعض الظروف المساعدة.

وتبقى الإشارة إلى أن الموضوع الذي وقع عليه اختيار الباحث عنواناً لهذه الدراسة لم يبلغ إلى حدود علمنا أنه شكل اهتماماً مركزياً لأي عمل أو بحث أكاديمي خلال الفترة المبحوث فيها، اللهم إذا استثنينا بعض الأعمال التي احتوت بعض مباحثها أو فصولها على جزء أو إشارة لموضوع المشروع الوحدوي المرابطي المغربي ولكن في سياق التاريخ العام.

وإيماناً بأهمية السؤال في انتاج المعرفة، وتوليد المعاني، وإيجاد الدلالات للأشياء، مما يعني فتح منافذ وعوالم ممكنة للبحث، فقد وضع الباحث مجموعة من التساؤلات عدّها مفيدة في الإجابة على قضايا الموضوع وإشكالاته الرئيسية.

فما التمثلات الذهنية والفكرية لموضوع « المشروع الوحدوي المرابطي المغربي» في الفكر العربي الإسلامي؟ وهل « لنذرة » المقومات داخل المجال الطبيعي في المغرب أثر في عدم الاهتمام المتواصل بمثل هذه الموضوع؟ ثم هل يسمح لنا تاريخ المرحلة أن نتحدث عن أسباب المشروع الوحدوي؟ وما هي أهم الدول التي وقفت في وجه هذا المشروع الوحدوي؟ وماهي أهم العوامل التي ساعدت على نجاح هذا المشروع؟ وهل تمكن المرابطين من تحقيق وحدة المغرب بالكامل؟

ولما كانت المعرفة تبدأ بالسؤال، فإن طبيعة الموضوع استلزم التنقيب في مختلف المصادر لإيجاد الأجوبة الشافية عن تلك التساؤلات الافتراضية التي قد تسهم في بناء الموضوع بناءً سليماً.

إشكالية البحث:

يطرح البحث العديد من الإشكالات أهمها: إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة؟ وما هي أهمية المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي؟ هل ارتبط المشروع الوحدوي المرابطي بدار الإسلام؟ وما هو أثر العوامل الداخلية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي؟ ولماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية؟

أهمية البحث:

إن مجالات الدراسة التاريخية في تاريخ المغرب العربي الإسلامي لاتزال خصبة لا تنضب وتتيح الفرصة لمزيد من الأقلام لتبرز النشاطات الفكرية والحضارية الواسعة النطاق وعلى الرغم من كثرة الدراسات التاريخية التي تبحث في تاريخ المغرب العربي الإسلامي وشموليته للعديد من المواضيع فإن ما كتب حول موضوع المشروع الوحدوي المرابطي المغربي لا يعدو كونه إشارات وإيحاءات منتشرة ومتفرقة في بطون بعض الكتب التي كتب لها البقاء.

ومن خلال هذا البحث سيتم الكشف عن أهمية هذه التجربة الوحدوية المرابطية وستكون هذه الدراسة اسهام جديد في حقل الدراسات التاريخية في تاريخ المغرب الإسلامي .

الهدف من البحث:

غاية البحث توضيح أهمية هذا المشروع الوحدوي المرابطي المغربي.

وعن أهمية المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي. وسيقف البحث على أهم أسباب تعثر التجربة الوحدوية المرابطية.

منهج البحث:

لقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي وتحليل النصوص التاريخية المستقاة من مصادر مختلفة، الذي يعتمد على وصف الوضع التاريخي للمراحل التي مرت بها التجربة الوحدوية المرابطية، قسمت الدراسة إلى مقدمة ومتن وخاتمة والمتن قسم إلى عدة فقرات وختمت الدراسة بعرض النتائج التي تم التوصل إليها.

1- إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة:

لم تتعرض أية دولة من دول المغرب في العصر الوسيط لعسف وتحامل الدراسات الأوروبية مثلما تعرضت له دولة المرابطين، بل جرى طمس وإغماط حق هذه الأخيرة في كثير من المنجزات، بما في ذلك تجربتها الوحدوية «الأم» على صعيد المغرب العربي. وحسبنا أن

معظم هذه الدراسات كُرست إما لإبراز «لا حضارية» أهل اللثام الذين وصفوا بـ«ريح الصحراء حين تهب على الغياض النضرة»[1]، والحاصل أن أهم مشروع تبنته الحركة المرابطية، وهو مشروع توحيد المغرب الإسلامي، كاد أن يهمل بالمرة مع أنه شكل حجر الزاوية في برنامجها السياسي.

صحيح أن بعض الدارسين الغربيين أشاروا في سياق كتاباتهم عن هذا الموضوع، إلا أنها كانت في الغالب الأعم إشارات خجولة، فضلاً عن أن التفاسير المقتضبة التي استعملت لتحليل هذه الظاهرة التاريخية حادت عن الصواب وما يصدق ذلك تفسير يوسف أشباخ لسيادة المرابطين على المغرب العربي بأنه نابع من موقف « قومي» تبناه البربر، رغبة في الانعتاق من السيطرة العربية[2].

وإذا كانت معظم الدراسات العربية قد أجمعت على أن المرابطين قد حققوا وحدة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط فإن الحاجة لازالت ماسة إلى دراسة هذا المشروع الوحدوي، لا كمشروع سياسي معزول عن الظاهرات التي أفرزته، بل كبنية متكاملة مؤطرة في سياق منظومة شاملة لها قوانينها وآلياتها، ومن ثم ضرورة البحث عن هذه الآليات، عن طريق تفكيك تلك المنظومة، وإعادة ترتيبها بما يتسق مع قوانين تطور المغرب، وذلك عن طريق إبداء ملاحظات وطرح تساؤلات تهدف إلى تأصيل المشكلة أكثر مما تسعى إلى الإجابة النهائية.

2- المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي:

أ- على الصعيد الرسمي:

إن أول ما يمكن ان يلاحظ في المشروع الوحدوي كونه حاضراً على الصعيد الرسمي والشعبي على السواء. فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس

(1) - أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م، ص493.
(2) - أشباخ: تاريخ الأندلس، ص476.

برنامجها السياسي، ووظفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق المغرب الكبير، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر النصراني المنبعث من صقلية.

ويكفي أن علي بن يحيى أمير المهدية[1]، استعمل ورقة التحالف مع الملثمين سلاحاً لتهديد

روجار أمير صقلية[2]، كما أن الخطر الموحدي الذي دهم المغرب وجد في الحماديين

[1] - علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس: لما توفي يحيى وقع الاتفاق على إنفاذ كتاب إلى ابنه علي يستقدم فيه من مدينة صفاقس مزواً على لسان أبيه: وأنفذ في الوقت والساعة، وضبطت الامور وحصنت الابواب بالرجال، وبادر لوقته صحبة أكابر العرب المجاورة لصفاقس، فوصل ثاني يوم وفاة أبيه، وقعد للناس، وخلع على وجوه الدعوة، وأنشدته الشعراء وكانت وفاة أبيه سنة 509هـ/1115م. وتوالت الفتن بينه وبين الأعراب، فكانت حاله معهم كحال أبيه وجده من قبله. واشتد ما بينه وبين روجر الثاني صاحب صقلية، فعاجلته المنية وكان شجاعاً حازماً، وولي بعده ولده الحسن، وكانت وفاته ظهر يوم الأحد، لسبع بقين من ربيع الآخر، سنة 515هـ/1121م ونقل إلى المنستير. انظر. ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي ت.695هـ/1295م: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان- إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط5، 1998م، ج1، ص306؛ ابن الوردي، عمر ت. 749هـ/1348م: تاريخ ابن الوردي، جمعية المعارف، القاهرة- مصر، 1879م، ج2، ص28؛ ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ/1374م: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تح:أحمد مختار العبادي- محمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م،ص81-83؛ ج1، ص306؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م، ص32.

[2] - ابن عذاري: البيان المغرب، ج4، ص67.

طرفاً ثانياً لمساعدة المرابطين إبان محنتهم، ولعل مصرع تاشفين بن علي[1]، في مدينة وهران[2]، في خضم التعاطف الحمادي، يعكس عمق الروابط الوحدوية على الصعيد الرسمي، على الرغم من هشاشة هذا التعاون الذي تعرض أحياناً لهزات عنيفة نتيجة تناقض المصالح.

ب- على الصعيد الشعبي:

أما على الصعيد الشعبي، فإن هاجس الوحدة كان حاضراً شعوراً وممارسة. فعلى الرغم من العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار المغرب الإسلامي، فإن الزخم الشعبي كان يتجاوز الإطارات الضيقة، والانعزال السياسي، ولم يكن هذا الشعور الشعبي ناتجاً عن ميل فطري نحو التوحد فحسب. بل كان متجذراً في فكر الفئات الشعبية، خاصة العلماء فالمؤرخون والجغرافيون المعاصرون لتلك الفترة، وحتى الذين جاؤوا من بعدهم، لم يعترفوا بالحدود الفاصلة بين دول المغرب. يقول أحدهم[3]: فالمسلمون حينما كانوا إخوة لاسيما من بهذه الجزيرة ومن بتلك «العدوة» ومصطلح «العدوة»

---

[1] - تاشفين صاحب المغرب أمير المسلمين بن علي بن يوسف بن تاشفين المصمودي البربري الملثم. ولي بعد أبيه سنتين وأشهراً، فكانت دولته في ضعف وسفال وزوال مع وجود عبد المؤمن. فتحصن بمدينة وهران. فصعد ليلة في رمضان سنة 539هـ/1144م إلى مزار بظاهر وهران فبيته أصحاب عبد المؤمن. فلما أيقن الشاب بالهلكة ركض فرسه فتردّى به إلى البحر فتحطّم وتلف، ولم يبق لعبد المؤمن منازعٌ وتوجه فأخذ تلمسان. انظر. الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ/1347م: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1985م، ج2، ص456؛ الأتابكي، يوسف بن تغري بردي ت. 874هـ/1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م، ج5، ص275؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ت. 1089هـ/1678م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط- محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1989م، مج6، ص199؛ الاعلام: ج2، ص82.

[2] - ابن أبي زرع، علي الفاسي ت. 726هـ/1325م: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999م، ص209.

[3] - ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ/1374م: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامي. تونس، ط1، 1912م، ص3.

لا يقتصر على المغرب الأقصى فحسب في ذهنية المؤرخين، بل كذلك المغربان الأوسط والأدنى[1]،

ويعبر ابن خلدون[2]، عن المجال الجغرافي للمغرب بأنه « جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهات» وهو تعريف وحدوي كما يتضح.

أما الجغرافيون فظلوا على غرار المؤرخين ينظرون إلى الغرب الإسلامي كرقعة واحدة رغم اختلاف الأسماء فالبكري يسميها« بإفريقية التي تمتد من برقة إلى طنجة الخضراء» وكان زيري ابن مناد[3]، من الفترة ذاتها يسمى بصاحب الغرب وما يليه. ورغم انتماء المراكشي إلى المغرب الأقصى فإنه يجعل من طنجة في العصر الموحدي «مدينة من المدن المتصلة ببر

---

[1] - عندما ترجم ابن الآبار لعبدالله بن محمد بن يحيى بن فرح بن الزهيري العبدري (ت.540هـ/1145م) ذكر أنه نزل قلعة حماد من العدوة. انظر. ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت.658هـ/1259م: التكملة لكتاب الصلة، تح: عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م، ج2، ص258؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ/1347م: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تح: طيّار آلتي قولاج، د.د، استانبول، 1995م، مج2، 965؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ/1347م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ج36، ص538-539؛ ابن الجزري، أبي الخير محمد بن محمد ت. 833هـ/1429م: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م، ج1، ص 407.

[2] - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت. 808هـ/1405م: مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى دوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت- لبنان، 2001م، ص83.

[3] - زيري ابن مناد الصنهاجي الحميري: أول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الاوسط. وهو الذي بنى مدينة أشير وإليه تنسب. وأعطاه المنصور إسماعيل تاهرت وأعمالها. وكان حسن السيرة شجاعاً. وأمر ابنه بلكين ببناء ملیانة ومدينة الجزائر والمدية. وكان موالياً لملوك الفاطميين عند ظهورهم وقتل في معركة بينه وبين جعفر ابن علي الأندلسي، قيل كبا به فرسه، فسقط على الأرض، فقتل. مدة ملكه 26سنة وهو جد المعز بن باديس. انظر. ابن خلكان، أحمد بن محمد ت. 681هـ/1282م: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، مج2، ص343-344؛ تاريخ المغرب: ص63-65؛ الأعلام ج3، ص63.

القيروان» في أقصى المغرب. وتقوم شهادات أخرى على أن مفهوم الغرب الإسلامي (العربي) كان يشمل هذا المجال الواسع، وليس المجالات المتباينة. وبديهي أن يشمل هذا المجال عدة أقاليم، ولكن هذه الأقاليم ليست مستقلة عن بعضها البعض، وإنما تكوِّن مجالاً جغرافياً واحداً[1].وذكر ابن عذاري أن حدَّ المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية، التي تلي بلاد المغرب، وحدُّه مدينة سلا. وينقسم أقساماً: فقسم من الإسكندرية إلى إطرابلس، وهو أكبرها، وأقلها عمارة، وقسم من إطرابلس وهي بلاد الجريد، ويقال أيضاً بلاد الزاب الأعلى، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل، وحدها من تيهرت، ويليها بلاد المغرب، وهي بلاد طنجة، وحدها مدينة سلا، وهي آخر المغرب. وإذا جزت سلا، وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يمنةً، وأخذت منها قافلاً إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا. ويقال لها أيضاً بلاد السوس الأدنى. وحدها إلى جبل درن. وإذا جزت هذا الجبل، فعن يمينك بلاد السوس الأقصى. ويقال لها بلاد ماسة، ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلا د السودان، وهي بلاد الزنج. وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب[2].

وإذا انتقلنا إلى الطبقات الدنيا «غير المثقفة» نلاحظ أنها نظرت – على طريقتها الخاصة– إلى الحركة المرابطية نظرة الموحد المنقذ. وفي هذا الصدد ذكر أحد المؤرخين أن الأندلسيين «لما رأوا المرابطين قد ملكوا مغرب العدوة، وطردوا عنه الزناتيين، فكأنهم تأنسوا بأبنائهم ورجوا الفرج من تلقائهم»[3]،

(1) - وهذا ما يؤكده تقسيم ابن خلدون للمغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى. انظر. مقدمة ابن خلدون: ص83؛ القبلي، محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، 1974م، ص9.

(2) – ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص5-6.

(3) - ابن الكردبوس، عبدالملك التوزري ت. بداية القرن7هـ/13م: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تح: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص85.

كما أن مؤتمر قرطبة الشعبي[1]، يعكس المنظور عينه، وهو مؤتمر تمخض عن القهر الممارس على الرعية التي رأت أنه لا يمكن إنقاذ وضعيتها إلا بإسقاط حكامها «والاتحاد مع المغرب في ظل المرابطين» بعدما رأوا من عدل المرابطين وتطبيقهم لأحكام الإسلام. وها هي الفرصة قد أتت فلا بدّ من اغتنامها وإلا ضاعت إلى الأبد. وكان يقود الشعب في معركته الصامتة قادتها لروحيون الفقهاء الذين حظوا بمكانة مرموقة لدى الأمير يوسف، فكان يستشيرهم في الأمور المهمة، وبما أنهم المحرك الأساسي للشعب ومستودع أسراره، فقد لعبوا دوراً بارزاً في مجريات الأحداث في الأندلس لقد كانوا الوسطاء بين الشعب والأمير يوسف[2].

وربما القبائل المغربية نظرت إلى الحركة المرابطية وهي في بداية تكونها النظرة ذاتها. ولم تكن المعارضة التي واجهتها من قبل الفئات المستضعفة، بل انبعثت من صفوف الزعماء والنبلاء الذين رأوا فيها خطراً يهدد مصالحهم[3]، وتقوم شهادة البكري دليلاً قوياً على صحة هذا التخريج[4].

ولا نعدم من القرائن الأخرى ما يزكي مقولة المدّ الوحدوي الشعبي، ويتجلى ذلك في تبادل الرحلات العلمية، ومنح الإجازات. وخير مثال في هذا الصدد يتمثل في شخصية

(1) - نصرة الله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1985م، ص67.

(2) - نصر الله: دولة المرابطين، ص112.

(3) - محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م، ص21.

(4) - البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ت. 487هـ/1094م: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص165-166. حيث يقول متحدثاً عن ابن ياسين: « فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أبار والآخر اينتكرا فعزلوه من الرأي والمشورة وهدموا داره».

أبي عمران الفاسي[1]، الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغربية، فهو مغربي «أصله من فاس وإليه ينسب درب ابن أبي الحاج بطالعة القرويين»[2]. ومع ذلك فقد فضل الاستيطان في القيروان. وعنه أخذ الناس من أقطار المغرب[3]. فكان بذلك شيخاً وأستاذاً لكل أبناء المغرب

[1] - أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي(368-430هـ/979-1039م): شيخ المالكية بالقيروان. نسبته إلى غفجوم (فخذ من زناتة، من البربر) وأصله من فاس، من بيت يعرف فيها ببني حجاج. ومسكنه ووفاته بالقيروان. زار الأندلس والمشرق، وخرَّج من عوالي حديثه نحو مئة ورقة، وصنف التعاليق على المدونة ولم يكمله والفهرست. انظر. القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي ت. 544هـ/1149م: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: سعيد أحمد أعراب، د.د، تطوان، 1982م، ج7، ص243-252؛ الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت. 696هـ/1296م: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة – مكتبة الخانجي، تونس- مصر، ط2، 1968م، ج3، ص159-164؛ ابن فرحون، ابراهيم بن علي المالكي ت. 799هـ/1396م: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت، ج2، ص337-338؛ ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص280-281؛ الأتابكي: النجوم الزاهرة، ج5، ص30؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج5، ص153؛ ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني ت. 1224هـ/1809م: أزهار البستان في طبقات الأعيان، تح: عبدالسلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1971م، ص76؛ مراد، يحيى: معجم تراجم أعلام الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2004م، ص246؛ شلبي، هند: القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983م، ص329-332؛ الأعلام: ج7، ص326.

[2] - ابن القاضي، أحمد المكناسي ت.1025هـ/1616م: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1973م،ق1، ص344.

[3] - ابن عجيبة: أزهار البستان، ص76.

العربي. وكان لوجاج بن زلوا اللمطي[1]، الذي درس عليه ضلع كبير في تأسيس دولة المرابطين – نواة الوحدة المغربية[2]. ويعتبر هذا الأخير كما هو معروف استاذاً لعبد الله بن ياسين، المنظِّر الأيديولوجي للحركة الوحدوية المرابطية.

وتساعدنا المصادر في سرد مثال يحمل مغزى عميقاً بصدد هذه المسألة، فقد قدم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل بن يوسف النحوي، واستقر في سجلماسة للتدريس بها غير أنه تعرّض للمضايقة والطرد من فقهاء المرابطين، لأنه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول. ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضل الإقامة في فاس والاستقرار في مغربه الكبير[3].

---

[1] - الفقيه محمد وكاك ابن زلوا للمطي: من أهل السوس الاقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به. انظر. ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي ت. 617هـ/1220م: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص89-92؛ وهناك خلاف في ذكر اسم هذا العالم فقد ذكره البكري، والفرد بل باسم وجاج وذكره ابن الأحمر، وابن الخطيب باسم بوجاج، وذكره ابن خلدون باسم وكاك، وذكره الناصري باسم واجاج، وذكره ابن المؤنس باسم وهاج. انظر. المغرب في ذكر: ص165؛ ابن الأحمر، إسماعيل ت. 807هـ/1404م: بيوتات فاس الكبرا، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص28؛ الحلل الموشية: ص9؛ ابن خلدون، عبد الرحمن ت. 808هـ/1403م: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت- لبنان، 2000م، ج6، ص243؛ ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ت.1092هـ/1681م: كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، ط1، 1967م، ص102؛ الناصري، أحمد بن خالد ت. 1315هـ/1897م: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري- محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م، ج2، ص6؛ بل، الفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط3، 1987م، ص229.

[2] - مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبدالقادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005م، ص145.

[3] - ابن الزيات: كتاب التشوف، ص98؛ القبلي: مراجعات حول، ص19.

ويترجم ابن القاضي، لمحمد بن داوود بن عطية (ت.525هـ/1131م)[1]، فيذكر أن أصله من إفريقية (تونس)، غير أن هذا الأصل لم يحل دون توليه القضاء بتلمسان، ثم اشبيلية وفاس. وكان عبد العزيز التونسي[2]، مدرساً بأغمات «وانتفع الناس عليه»[3].

ومن المظاهر التي تفصح عن تجذر هذه الوحدة الشعبية، الحج إلى الديار المقدسة، فقد كان هذا الحج تعبيراً غير مباشر عن الشعور الشعبي نحو الوحدة المغربية. وحسبنا أن يحيى بن ابراهيم[4]، –أحد الأقطاب المؤسسين للدولة المرابطية– مر في طريقه إلى الحج بالقيروان التي كانت قبلة أولى في ركب الحجاج المغاربة، إلى درجة يمكن معها القول أن النسيج الأول للأيديولوجية المرابطية تكوّن في القيروان.

وبالمثل ظلت التجارة إحدى الأدوات التي عكست هذا المنظور الشعبي للوحدة. فالعداء السياسي بين المرابطين وبني حماد، لم يؤثر في جماهير التجار. وحسبنا أن تجار بجاية كانوا

(1) - محمد بن داوود بن عطية بن سعيد العكّي الجراوي: أصله من إفريقية، واستوطن أبوه القلعة. روا عن عبد الجليل الربعي وغيره، ولقي بقرطبة أبا علي الغساني فأخذ عنه كثيراً، واستقضى بتلمسان ثم بإشبيلية ثم بفاس أخيراً. وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم، وله مسائل منثورة وقد حدث. توفي ضحا يوم الاثنين العاشر من ذي القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمئة، ودفن ضحوة يوم الثلاثاء بعدة، وهو في سن الثمانين. انظر. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك بن مسعود ت.578هـ/1182م: كتاب الصلة، تح: شريف أو العلا العدوى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008م، مج2، ص239؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق1، ص255.

(2) - عبد العزيز التونسي: من الفقهاء ومن أهل الزهد في الدنيا. قرأ على الشيخ أبي عمران الفاسي المدفون بالقيروان، وقرأ على الشيخ أبي إسحاق التونسي وغيرهما ودخل الاندلس واستقر بآغمات وكانت وفاة عبد العزيز التونسي سنة 486هـ/1093م وكان مدرساً بآغمت وانتفع الناس عليه، ولما رأى جملة من تلاميذته نالوا بالفقه الخطط ترك التدريس وقال :«صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص» فاشتغل بالسياحة ثم رجع إلى تعليم علم التصوف مدة. انظر. ابن قنفذ، أحمد الخطيب القسنطيني ت. 810هـ/1407م: أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط،1965م، ص106-107.

(3) - ا بن قنفذ: أنس الفقير، ص107.

(4) - يحيى بن ابراهيم الجدالى: هو زعيم قبائل صنهاجة استلم بعد محمد بن نيفات اللمطي، وكان يحيى مشهور بين الناس. فأقام على رياسة صنهاجة مدة، ثم استخلف ولده ابراهيم بن يحيى على رياستهم وحروبهم مع أعدائهم، وتوجه إلى المشرق، فلما حج وانصرف اجتمع بأبي عمران الفاسي وجلس إليه وتعرف به وأخبره ببلاده وسيرة قومه وأن يندبهم إلى من يقوم بشعائر الله ورغب منه في تعين من يتوجه لهدايتهم فانتدب عبدالله بن ياسين الجزولي وظل معه يحيى بن ابراهيم حتى وفاته . انظر. تاريخ المغرب: ص226-228.

يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وغيرهم[1]، وزاد تشابه المعايير في الكيل والوزن والنقود في جل بلدان المغرب الإسلامي[2]، من تجذر هذه الوحدة التجارية. كما أن قلعة أبي الطويل (قرب القيروان)[3]، أصبحت في عصر البكري مقصد التجار من سائر بلاد المغرب[4]. والحكم نفسه ينطبق على سجلماسة بالمغرب الأقصى[5]، وقفصة التي كان تجارها يخرجون محملين بالسلع، ميممين وجههم شطر المغرب والأندلس[6].

وتتجلى مظاهر التوحد الشعبي كذلك حتى في الأطعمة، فقد ذكر صاحب كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين جملة من الأطعمة التي تخصصت بها إفريقية وتأثر بها المغاربة ومنها القرصة التونسية والعسل المستخدم في الولائم[7].

وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الوحدة المغربية على الصعيد الشعبي، ولا غرو فإن فكرت الشيخ والمريد حطمت كل تصور للحدود السياسية. فالمتصوف المغربي المشهور

(1) - الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله ت. 564هـ/1168م: المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبع بريل، مدينة ليدن المحروسة، د.ت، ص90.

(2)- السامرائي، خليل ابراهيم: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1985م، ص421.

(3) - وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل افريقية وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق ومصر والشام وسائر بلاد المغرب وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة وبهذه القلعة تحصن بها أبو يزيد مخلد بن كيداد. انظر. البكري: المغرب في ذكر، ص49.

(4) - البكري: المغرب في ذكر، ص49.

(5) - الادريسي: المغرب وأرض، ص60.

(6) - مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، مطبعة جامعة الاسكندرية، د..م، 1958، ص153.

(7) - مؤلف مجهول ت. القرن 6هـ/12م: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م، ص206-207.

أبو يعزى[1]،هو شيخ أبي مدين[2]، الذي كان يقيم في بجاية، ومنه لبس الخرقة، ومن شدة إعجابه بشيخه أنه قال عن كراماته:« ينبغي أن تكتب بالذهب»[3]. والجدير بالذكر أن تبادل الزيارات بين المتصوفة كانت سنة ثابتة[4]، بل منهم من فضل الإقامة في البلد الذي رحل إليه. فعندما ترجم ابن الزيات[5]، لأبي عبدالله محمد بن سعدون بن بلال القيرواني ذكر أن أصله من القيروان، وأنه استقر بأغمات وريكة وفيها توفي. ومن ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة حيث لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، بل إن هذه القاعدة كانت تطرح البديل الوحدوي لاكتساح واقع التجزئة.

3- ارتباط المشروع الوحدوي المرابطي بأوضاع دار الإسلام[6]:

يلاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي لم يكن بمعزل عن منظومة وحدة دار الإسلام وخلافة الشرق السنية. وربما ليس صحيحاً ما ذكره بعض الدارسين، الذين اعتبروا إنشاء الدولة المرابطية – مهد الوحدة المغربية- إعلاناً للاستقلال الفعلي للمغرب عن المشرق[7]، أو ما زعمه

---

(1) - الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون: قال قوم عنه من هزميرة إيروجان وقيل بني صبيح من هسكورة توفي وقد أناف على مائة سنة بنحو الثلاثين سنة ودفن بجبل إيروجان في أول شهر شوال عام 572هـ/1176م وكان قطب عصره وأعجوبة دهره، قال أبا مدين فيه: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعّزى. انظر. التميمي، محمد بن عبد الكريم ت.604هـ/1207م: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح: محمد الشريف، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط1، 2002م، ق2، ص28-40؛ التشوف: ص213-222؛ العزفي، أحمد بن محمد ت. 633هـ/1235م: دعامة اليقين في زعامة المتقين «مناقب الشيخ أبي يعزى»، تح: أحمد التوفيق، مطبعة المعارف، الرباط، د.ت، ص36-65؛ ابن عبد الملك، محمد بن محمد المراكشي ت. 703هـ/1302م: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، مج5، ص329؛ أنس الفقير: ص 21-36؛ جذوة الاقتباس: ص563-564؛ الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس ت. 1345هـ/1926م: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حزة بن علي الكتاني، د.د، الرباط – المغرب، 2005، 184-186.

(2) – التميمي: المستفاد، ق2، ص41-45؛ ابن الزيات: التشوف، ص319-326.

(3) - ابن الزيات: التشوف، ص323؛ التادلي، أحمد الصومعي ت.920هـ/1514م: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبو يعزى، تح: علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م، ص116.

(4) - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص94-95.

(5) - ابن الزيات: كتاب التشوف، ص83.

6 - المقصود بها الخلافة العباسية.

(7) - أكنوش، عبد اللطيف: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، دار إفريقيا الشرق، د.م، د.ت، ص66.

البعض الآخر من أن قيام المرابطين يعبر عن استعادة البربر لمصيرهم بين أيديهم. وحتى مقولة المشروعية الشرقية التي طرحها باحث آخر[1]، لا تعفيه من هذا الحكم، لأن المسألة لو انحصرت في مجرد الحصول على المشروعية لاقتصرت على بداية تكون الدولة. لكن على العكس يلاحظ أن الظاهرة استمرت متجلية في إيفاد السفراء إلى بغداد[2]، حتى أنها أصبحت سنة يسير على هديها كافة الأمراء المرابطين،

فما كاد علي بن يوسف بن تاشفين[3]، يتسلم السلطة حتى بادر إلى طلب تجديد العهد من قبل خلافة المشرق، واستمر الدعاء للخليفة العباسي على المنابر، وذكر اسمه على وجه العملة المرابطية[4]، واتخاذ شعار السواد. وحتى بعد سقوط الدولة، لم يخفِ بنو غانية – حفدة المرابطين– ولاءهم لبني العباس[5]، في الوقت الذي ناصبوا الفاطميين العداء، رغم تقرب هؤلاء إليهم.

وإذا كان لقب «أمير المسلمين» يجسد فعلياً هذا الارتباط الروحي الحضاري بمنظومة الأمة الإسلامية، فمن السخف اعتبار هذه التسمية راجعة إلى عدم انتساب المرابطين لسلالة الرسول الكريم[6].

---

(1) - القبلي: مراجعات حول، ص14.

(2) - الناصري: كتاب الاستقصا،ج2، ص58.

(3) - علي بن يوسف بن تاشفين: صاحب عدل ودين وتعبد وحسن طويّة وشدّة إيثار لأهل العلم وتعظيم لهم، وذمَّ للكلام وأهله. ولما وصلت إليه كتب أبي حامد أمر بإحراقها وشدّد في ذلك، ولكنه كان مستضعفاً مع رؤوس أمرائه، فلذلك ظهرت مناكير وخمور في دولته. فتغافل وعكف على العبادة. وتوثب عليه ابن تومرت، ثم صاحبه عبد المؤمن. توفي في رجب سنة 537هـ/1142م عن إحدى وستين سنة، وتملك بعده ابنه تاشفين. انظر. وفيات الأعيان: مج7، ص125-126؛ ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ/1286م: رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م، ص52؛ العبر: ج2، ص452؛ ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص61-62؛ النجوم الزاهرة: ج5، ص272؛ شذرات الذهب: مج6، ص188-189؛ الأعلام: ج5، ص33.

(4) - ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص64-65.

(5) - حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م، ص 48.

(6) - أكنوش: تاريخ المؤسسات، ص70.

بل الواقع– كما تنبه إلى ذلك أحد الدارسين–[1]، أن سياسة المرابطين الوحدوية كانت ترمي إلى المحافظة على وحدة دار الإسلام، وردّ المغرب إلى أحضان الأمة الإسلامية على حد تعبير باحث آخر[2].

ومهما كان الأمر، فإن هذه الظاهرة –ظاهرة الارتباط مع الشرق الإسلامي– انعكست بصورة أوضح على المستوى الشعبي، فقوافل الحجاج المغاربة إلى مكة والمشرق ازدادت أعدادها رغم عدم توفر الأمن بسبب استيلاء الفاطميين على مصر. والواقع أن التواجد الفاطمي لم يحل دون احتضان مصر للمغاربة. وتطفح كتب السير والطبقات بسيل من الأمثلة التي تصب في هذا الاتجاه. فعندما ترجم ابن الآبار[3]، لابن أبي الصلت ت. 520هـ/1127م. يذكر أنه لزم التعلم بمصر عشرين سنة. ويذكر التميمي، أنه بعد أداء فريضة الحج، كانوا يحتكون بمشاهير علماء مكة[4]، حتى إذا ما طاب لهم المقام فيها، واستقطبهم اشعاعها العلمي، آلوا إلا أن يجعلوها دار مقام واستقرار. فهذا أبو الحسن علي بن حمود المكناسي كما يذكر التميمي، غمره جوها الديني والعلمي، مما حدا به إلى الإقامة فيها نهائياً بعد أن قدمه أهلها لإمامة المالكية[5].

لم يقتصر تواجد المغاربة والأندلسيين على مصر ومكة فحسب، بل وصلوا إلى العراق، وهناك طبقت شهرتهم الآفاق. فأبو الأصبغ عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحان، حج ودخل العراق وقرأ بواسط ودخل الشام، واشتهر ذكره وجل قدره، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الحافظ، وعلي بن يونس. قال بعضهم: سمعت غير واحد يقول: ليس بالغرب أعلم

(1) - حركات، ابراهيم: المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م، ج1، ص172، 186.

(2) – كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، د.د، طنجة، ط2، 1960م، ج1، ص68.

(3) - ابن الآبار محمد بن عبدالله ت. 658هـ/1259م: المقتضب من تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط2، 1983م، ص56.

(4) - مثل لقاء أبي الحسن علي بن أحمد الكناني بالإمام الغزالي. انظر. المستفاد: ق2، ص68-69.

(5) - التميمي: كتاب المستفاد، ق2، ص103- 105.

بالقراءات من ابن الطحان، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبي العلاء وأبو طالب ابن عبد السميع وغيرهما، وكانت ولادته بإشبيلية سنة 498هـ/1104م، وله كتاب «نظام الأداء في الوقف والابتداء» ومقدمة في مخارج الحروف، ومقدمة في أصول القراءات، وكتاب «الدعاء» وكان من القراء المجودين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات. توفي بحلب سنة 559هـ/1163م [1]، أما أبو محمد عبدالله بن عيسى فقد دخل العراق وخرسان، وأقام بها أعواماً وطار ذكره في هذه البلاد، وعظم شأنه في العلم والدين، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال توفي سنة 551هـ/1156م، وقيل أن وفاته سنة 548هـ/1153م، وكانت ولادته 484هـ/1091م، بشلب[2].

وبالمثل فإن العراقيين توجهوا بدورهم نحو الأندلس التي كانت أنذاك ولاية مغربية ومن هؤلاء هشام بن محمد الذي تنافس الناس في الأخذ عنه[3]. وعلى غرار الصلات العلمية، لم ينطفئ شعاع الصلات الروحية بين الشرق والغرب، إذ يخبرنا ابن الزيات[4]، بأن طائفة من متصوفة الشرق وصلوا إلى بلدة أزمور لزيارة بعض متصوفة المغرب كأبي عبدالله بن أمغار وأبي شعيب وأبي عيسى. كل هذه القرائن الرسمية منها والشعبية تنهض دليلاً على أن المد الوحدوي المغاربي تأطر في وعاء المد الوحدوي الإسلامي العام.

4- أثر العوامل الداخلية والخارجية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي:

(1) - المقري، أحمد بن محمد ت. 1041هـ/1631م: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط5، 2008م، مج2، ص634.
(2) - المقري: نفح الطيب، مج2، ص650.
(3) – ابن الآبار: التكملة، ج4، ص144-145.
(4) - ابن الزيات: كتاب التشوف، 185.

دخل العالم المسيحي عصر الاندماج السياسي، وجرب نوعاً من التوحد الديني حيث استطاعت الكنيسة في روما أن تسرب نفوذها، وأخذت البورجوازية الأوروبية تتطلع نحو النفوذ والسلطان، فانتعشت لذلك الحياة الاقتصادية. وعلى الرغم من اهتمام المرابطين بالأسطول، وبروز سياستهم المتوسطية في أوضح صورها، فإن ذلك لم يكن كافياً لتخويف المتطلعين والمتربصين. ولو أن قوام الأسطول بلغ مائة بارجة حربية[1].

فمن إنصاف القول أن ميزان القوى أصبح في صالح المسيحيين، إذ غدت أوروبا كلها تقريباً موحدة تحت راية الكنيسة، وبدأ دبيب النهضة يغمرها، كما بدأت شعوبها تنتعش ووعيها يستيقظ، فأصبحت تطالب بحقوقها، وتناقش حكامها، ودعمت هذه النهضة السياسية بانتعاش الحركة التجارية، وأصبحت أساطيل جمهوريات إيطاليا تجوب البحر المتوسط طولاً وعرضاً، وتطهره من أوكار الأساطيل الإسلامية[2]. ولا غرو فقد شنت هجومات عنيفة على سردينيا، واستولت على بونة سنة 420هـ/1029م. ومنذ سنة 453هـ/1062م انتهزت القوى المسيحية فرصة انشغال الزيريين بما داهمهم من غارات العرب الهلاليين، فأخذوا ينتزعون منهم المدينة تلو الأخرى حتى تمت السيطرة نهائياً على صقلية سنة 480هـ/1089م، ثم بدأوا يقلقون راحة الزيريين في عقر دارهم، مصداق ذلك تعرض زويلة والمهدية لاعتداءات صارخة انتهت باستيلائهم عليهما.

ولم تكن الجبهة الأندلسية في موقف تحسد عليه، فالممالك النصرانية تخلت عن نزاعاتها، وأخذت توجه كل قواها ضد أعداء النصرانية، بفضل ألفونسو السادس الذي تمكن من احتلال طليطلة أعظم معقل للدلة الإسلامية في الأندلس، وصاغ الوحدة السياسية بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ إسبانيا النصرانية[3]. وأخذ الزعيم المسيحي الذي لقب بذي الملتين، يستدر عطف الكنيسة، فألغى الطقوس القوطية من الكنيسة الاسبانية، وأحل محلها الطقوس الرومانية، وكان

(1) - حركات: المغرب عبر، ص212.
(2) - محمود: قيام دولة، ص240.
(3) - أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 68.

لهذه السياسة أثر بعيد في حركة الاسترداد وإشعال نار الحروب الصليبية التي صارت ترعاها كنيسة روما وتباركها[1]، حتى أصبحت الأندلس خط الصدام الأول على حد تعبير أحد الباحثين[2]. ومما يزكي هذا القول ويفصح أن المغرب العربي أصبح هدف الحروب الصليبية، أن البابا أوربان الثاني لم يسمح لبعض الاسبان بالمساهمة فيها، بدعوى أن مقاتلتهم للمسلمين تعتبر مشاركة فعلية فيها. بل إن الفونسو السادس وصل – كما تذكر الرواية العربية– إلى جزيرة طريف في أقصى الجنوب، فأدخل قوائم فرسه في البحر، وقال بأن هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته[3].

ومن القرائن التي تعكس شدة الصدام بين القوى المغربية والمسيحية في البحر المتوسط ما أكدته القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال وحسبنا أنها أقرت بخصوص طبقة النبلاء أن الذين يدخلون في عدادها ينحصرون في أبناء شهداء النصرانية، وأن صفة النبل ترفع عن كل من فر إلى المسلمين[4].

وثمة ملاحظة مهمة لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي أن المشروع الوحدوي المرابطي انطلق أول مرة من الجنوب، ومن طرف القوى الأمازيغية المحلية. فعلى عكس المحاولات السابقة، كانت المشاريع الوحدوية تنطلق من الشرق، حيث كان المغرب يتلقى الايديولوجي الوافدة، والزعماء العرب الذين كانوا يؤسسون إمارات سرعان ما تتهاوى وتفشل في تحقيق الدولة الموحدة ولذلك لا يسعنا إلا أن نعتبر أن فشل المحاولات السابقة في بناء كيان سياسي موحد لا يعزى إلى عجزها عن توحيد الطرق التجارية تحت سيطرتها فحسب، بل يرجع كذلك إلى أن أصحابها لم يكونوا من العترة المغربية الخالصة، فكانوا بذلك دخلاء على العصبية التي ناصرتهم.

(1) - محمود: قيام دولة، ص241-244.
(2) - نصرة الله: دولة المرابطين، ص103.
(3) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص182-183.
(4) - أشباخ: تاريخ الاندلس، ص248-249.

وفي الوقت الذي جرى تسرب هذه المحاولات من الشرق، يلاحظ لأول مرة أن المشروع الوحدوي المرابطي جاء من الجنوب، والأمر في حد ذاته يحمل بعداً اقتصادياً يتجلى في تدهور طرق التجارة المؤدية إلى الشرق، وخاصة الطريق المار عبر واحة فزّان الذي محت آثاره العواصف، لصالح الطريق الساحلي النابع من الجنوب الصحراوي الذاهب نحو عالم البحر المتوسط وأوروبا. ومهما كان الأمر فإن مساهمة القوى المحلية في صنع هذا القرار السياسي، جعلت المشروع الوحدوي المرابطي أول وحدة مغربية خالصة تعبر عن الشخصية المغربية الإسلامية.

5- الشروط الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية لميلاد المشروع الوحدوي المرابطي:

من الملاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي تسلح بإيديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهباً وعقيدة ووطنية على حد تعبير أحد الدارسين[1]. وقد تضمنت هذه الحركة التصحيحية فكرة إقامة دولة موحدة على أساس الرجوع إلى الينابيع الأولى للإسلام، وتطهير المجتمع ولو عن طريق الشدة[2]، وهذه أول مرة تحدث حركة في هذا الاتجاه.

وإذا كانت الإيديولوجية المالكية قد مكّنت لنفسها من الغلبة والهيمنة، فإن ذلك لا يفسر بأنها المعقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة[3]، أو معارضة الفقهاء المالكيين للسلطة. فقد أثبتت الأحداث أن هؤلاء الفقهاء شكّلوا السند القوي للسلطة المرابطية. والتفسير السوي بإدراك صحوة المالكية في المغرب رهنٌ بربطه بالشرق الإسلامي الذي كان يعرف مداً سنياً. وليس ثمة ما يحول دون القول بأن خطة تطويق المذهب الفاطمي من جناحي العالم الإسلامي يفسر ما قام

(1) - محمود: قيام دولة، ص90.
(2) - حيث يقوم البكري بشرح بعض التفاصيل عن ذلك .انظر. المغرب في ذكر: ص165-166.
(3) - محمود: قيام دولة، ص98.

به المرابطون. فإذا كانت الأشعرية في الشرق قد مهدت الطريق للسلاجقة، فإن هذا الدور كان من نصيب المرابطين في الغرب.

وإذا ربطنا بين الإيديولوجية وواقعها التحتي، فإنه يتبين من خلال ما توصلت إليه بعض الدراسات أن الحكم السلجوقي مثل ذروة المد الاقطاعي على الصعيد السياسي، وأن الأشعرية جاءت انعكاساً لهذا النظام على الصعيد الفكري. أما في المغرب فيمكن التمييز بين ثلاثة مذاهب كان بإمكانها ان تلعب دور المنافس على مستويات مختلفة: المذهب الحنبلي على مستوى العقيدة، والشافعي على صعيد المنهجية الفقهية، والمالكي على مستوى التنظيم الفقهي. ومع أن المذهبين الأولين كانا يلقيان تجاوباً من طرف الطبقات الدنيا في المدن والأوساط التجارية. فإن المد الإقطاعي الذي كان يجتاح العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب لم يسمح لهما بالغلبة والانتصار، فضلاً عن أن هذه المذاهب لم يكن يعززها منطق أو فلسفة معينة كما حدث في المشرق[1].

كما أن انتصار الإيديولوجية المالكية يفسر بما كان يمثله شمال المغرب أنئذ، فقد كان أشد تعلقاً بالإسلام بفضل جهود الأدارسة ونمو حركة التجارة مع الأندلس. ومن هنا يمكن تفسير طريق الاكتساح الذي سلكته المالكية انطلاقاً من المدن التجارية[2]. وهذا الدور يجسد ما طمحت إليه هذه القوى الموحدة من استيلاء يضمن لها السيطرة الكلية على تجارة الشمال والجنوب أي تجارة الذهب، ومحاولة احتكار تسويقها في بلاد المغرب. على أية حال فإن المذهب المالكي أصبح خطاً إيديولوجياً وحدوياً. ومما زاد في نفوذه وجماهيريته تلك الصبغة الثورية، التي ظهر بها خاصة في المراحل الأولى من تأسيس الدولة المرابطية التي وجدت سنداً يعطيها مشروعية التحرك في الاتجاه الوحدوي.

[1] - حركات: المغرب عبر، ص176-181.
[2] - حركات: المغرب عبر، ص114-115.

وكما تسلح المشروع الوحدوي بإيديولوجية إصلاحية منحته مشروعيته وديناميته، فإنه استند على شرط اقتصادي تجلى في سيطرة المرابطين على طرق التجارة بعيدة المدى، كما أن دور الوسيط التجاري الذي اضطلعوا به زاد من تجذر وحدة المغرب. وإنعاش اقتصاده وتطوير وسائل إنتاجه، مما دعم قاعدتهم المادية لتحقيق وحدة المغرب العربي. ويكفي دليلاً على ذلك كون الحركة المرابطية اتبعت في خط سيرها نحو الشمال أهم المدن التجارية وهي سجلماسة وتارودانت وأغمات وسهول تامسنا الغنية ثم فاس. وبذلك أصبحت تتحكم في طرق تجارة القوافل. وبإحكام قبضتها على هذه الطرق تمكنت من خلق الكيان السياسي الموحد. وربما يكون التشرذم السياسي الذي سبق المرابطين لم يكن سوى انعكاس لتصدع الطرق التجارية وتفتيت ملكيتها بين مختلف الكيانات القزمية. كما أن اعتياد المغاربة على حياة الترحال والتنقل أعاق عملية إنجاز الوحدة السياسية حيث لم يقدّر للقبائل المتنقلة إقامة حلف سياسي، على عكس قبائل الملثمين التي نجحت في إقامة هذا الحلف الذي يعد النواة الأولى للوحدة المغاربية، وهو نجاح يُفسرُّ بسيطرتهم على الطريق التجاري الذاهب إلى السودان، لذلك لا عجب أن يتصدوا للقيام بهذا المشروع السياسي الوحدوي.

ومن جملة الملاحظات التي يمكن أن تذكر بصدد المشروع الوحدوي المرابطي هو أن هذ الأخير ارتكز على عامل لا يمكن انكاره، ويتعلق الأمر بقرابة الدم. فبنو حماد هم أصلاً بنو عمومة القبائل الصنهاجية الضاربة في الجنوب المغربي، لذلك فإن العلاقة بين الجانبين لم تعرف تصعيداً خطيراً في النزاع رغم طموح المرابطين المبدئي إلى توحيد المغرب العربي عن طريق ضم المغرب الأوسط، بل إن عامل القرابة لطّف من حدة الصراع، ووفر أطواراً من المهادنة، بل إلى التعاون أحياناً إلى درجة جعلت بعض الباحثين[1].

[1] - نصر الله: دولة المرابطين، ص75.

يذهبون إلى القول بأن علاقة القرابة تلك، جعلت يوسف بن تاشفين[1]، لا يتقدم في عملية التوحيد شرقاً، بل إن التعاون بلغ ذروته في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محسن (444-447هـ/1053-1056م) حين أمد بني عمومته من الملثمين بجيش ضخم لتدعيم الوحدة الصنهاجية في الشمال والجنوب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب، واعتقادهما أنهما يقاتلان عدواً مشتركاً [2].

وربما لم يكن عامل القرابة عاملاً حاسماً في عملية التوحيد بقدر ما كان ظرفياً فحسب، وأن عوامل الهيمنة – بما تعنيه من سيطرة على الطرق التجارية– كانت وراء هذه المسألة، وهذا ما يفسر ترحيب الحماديين بأبناء عمومتهم في بداية تكوّن دولتهم وتضامنهم معهم إبان ظهور الخطر الموحدي[3]. وعدم الاطمئنان إلى نياتهم عندما أصبحوا يهددون خطوطهم التجارية الغربية. وبالرغم من ظرفية هذا العامل، فقد لعب دوره في نمو فكرة الوحدة المغربية خاصة حين كانت في طورها الجنيني في الصحراء المغربية.

6- لماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية:

[1] - يوسف بن تاشفين: أمير المسلمين، سلطان المغرب، أبو أيوب اللمتوني البربري الملثم، توفي في ثالث المحرم، عن تسعين سنة، وكان أكبر ملوك الدنيا في عصره، ودولته بضع وثلاثون سنة، وكان بطلاً شجاعاً عادلاً، عديم الرفاهية، قشب العيش على قاعدة البربر، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت، اختط مراكش وأنشأها في سرح، وصيّرها دار الإمارة، وكثرت جيوشه وبَعُد صيته وتملك الأندلس، ودانت له الأمم، وفي آخر أيامه بعث رسولاً إلى العراق، يطلب عهداً من المستظهر بالله، فبعث له بالخلع والتقليد واللواء، وأقيمت الخطبة العباسية بمملكته، وكانت وفاته في سنة 500هـ/1106م، وعهد بالأمر من بعده إلى ابنه علي، الذي خرج عليه ابن تومرت. انظر. وفيات الأعيان: مج7، ص112-125؛ العبر: ج2، ص381؛ تاريخ الإسلام: ج34، ص329-339؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص436؛ الحلل الموشية: ص12، 59-60؛ أبي زكرياء، يحيى بن محمد ت.782هـ/1380م: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903م، ص86؛ كتاب صبح الأعشى: ج1، ص363؛ النجوم الزاهرة: ج5، ص195، شذرات الذهب: مج5، ص427-428؛ الأعلام: ج8، ص222.

[2] - السامرائي: علاقات المرابطين، ص306؛ محمود: قيام دولة، ص200.

[3] - يذكر ابن عذاري أن جيشاً من بجاية وصل لمناصرة الأمير المرابطي تاشفين بن علي عندما كانت تلاحقه القوات الموحدية. انظر. البيان المغرب: ج4، ص103؛ السامرائي: علاقات المرابطين، ص306.

عرف المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، أي قبيل ظهور المد المرابطي، نظاماً سمي بالنموذج القبلي الأسروي، حيث تقاسمته عدة حكومات « قبلية» زادت من تجذر التجزئة، وتفاقم النعرة القبلية[1]، وأصبح نهباً لقوى طائفية مغامرة مزقت وحدته إلى إمارات إقطاعية. وأثرت مجمل التقلبات السياسية على الوضع الاقتصادي، فالحروب التي ذّرت قرنها بين مختلف الكيانات المتناحرة لم تتح للمنطقة ظروف السلم والاستقرار، وهي شروط أساسية لتقدم الإنتاج. يقول ابن أبي زرع عن صراع الأمير فتوح بن دوناس مع أخيه عجيسة[2]: فكانا لا يزالان يقتتلان ليلاً ونهاراً، فكثر الخوف في أيامهم بالمغرب وغلت الأسعار، واشتدت المجاعة، وعظم الهرج، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال أناء الليل وأطراف النهار[3].

وثمت عامل آخر ساهم في تدهور الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي، وهو انهيار الطريق التجاري العابر لواحة فزّان بسبب العواصف الرملية، مما أسفر عن ازدياد أهمية الطريق الغربي الذي كان يمر بديار الملثمين، فاحتكره هؤلاء لأنفسهم وحرموا الزناتيين منه. ولعل هذا الانقلاب في الطريق التجاري هو الذي فرض انهيار النموذج الأسروي القبلي كنظام سياسي لصالح المركزية السياسية التي ستتأسس انطلاقاً من عملية بسط هيمنتها على مختلف الطرق التجارية الأخرى. وتمخض عن إفلات هذا الطريق من يد زناتة استئسار هذه الأخيرة في فرض المكوس والضرائب الجائرة. مما أسفر عن تدهور الأوضاع، وظهور أعمال السلب والنهب، وفي ذلك دليل على أن دولة الأسرة القبلية كنظام سياسي أصبح متجاوزاً بعد أن عجز عن تحقيق ما كانت تطمح

---

(1) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص10.

(2) - فتوح بن دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي: أمير فاس وليها بعد وفاة أبيه سنة 452هـ مشاركاً لأخيه الأكبر عجيسة بن دوناس واستوطن عدوة الأندلس من مدينة فاس، كما استوطن عجيسة عدوة القرويين. ثم كانت بينهما حروب استمرت إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة، فقتله غدراً. وصفت له الإمارة إلى أن هاجمته لمتونة فرحل، وجهل مصيره. ومدة إمارته خمسة أعوام وخمسة أشهر. وهو الذي بنى باب الفتوح الباقي إلى الآن. انظر. البيان المغرب: ج3، ص313-314؛ جذوة الاقتباس: ق2، ص507؛ الأعلام: ج5، ص136.

(3) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص141.

إليه الجماهير المغربية من خلق ظروف ملائمة للإنتاج. وإذا كان الوضع الاقتصادي المتسم بالانكفاء وعدم الانفتاح على التجارة بعيدة المدى قد كون بيئة سياسية مهترئة، فإنه أفرز على الصعيد المذهبي كذلك تعددية في المذاهب، مصداق ذلك ما تشير إليه المصادر من انتشار مذاهب ونحل مختلفة[1].

وما الأمور التي عثرت التجربة الوحدوية المرابطية على الصعيد الداخلي والخارجي على حد سواء؟

فعلى الصعيد الخارجي ، لا سبيل لإنكار انشغال القوى المرابطية بردع التطلعات الصليبية وتحجيم دور النصارى إلى حد أنها لفظت أنفاسها وهي في زهرة شبابها. فقد وجهت كل طاقاتها للتصدي لحركة الاسترداد المسيحي، ومن ثم خصصت كل النفقات للجانب العسكري، مما أفقدها قاعدتها المادية التي عملت جاهدة في بداية تكوينها على ترسيخها. فمعركة الزلاقة لم تكن سوى انطلاقة لشوط جديد من التسلط الصليبي، تمخض عنه إضعاف الدولة وإرهاق ميزانيتها، وهذا جانب له أهميته في تفسير آلية التصدع المشار إليه في الأزمات البنيوية التي شكلت منعطفاً خطيراً في المسار التاريخي للدولة. ذلك أن القوى التي حملت مشروع التوحيد كانت تحمل في ذاتها أمراضاً سياسية يمكن إجمالها فيما يلي:

1- اعتماد الدولة على القوة الحربية لإعطاء المشروعية لنفسها، وتبنيها مشروعات توسعية تفوق طاقاتها. وهذا ما يفسر انطفاء شعلتها وهي في أوجها. وتبرز في هذا الصدد وجاهة رأي أحد الدارسين[2]، حين استخلص بأن مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم دعامة في

[1] - يشير الإدريسي إلى تواجد المذهب الفاطمي في السوس. انظر. المغرب وأرض السودان: ص62؛ المغرب في ذكر: ص161؛ هذا بالإضافة إلى فرق الخوارج التي عمت المغرب الإسلامي، وأهمها الصفرية والإباضية. انظر. الحضارة الإسلامية: ص463.

[2] - أكنوش: تاريخ المؤسسات، ص68.

الايديولوجية المرابطية هي مقولة سياسية تتضمن مشروعاً حربياً توسعياً. ويصور ابن أبي زرع[1]، هذا التوسع المرابطي في عبارة مختصرة متحدثاً عن علي بن يوسف: وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان. وملك بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ويابسة، وخطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمئة منبر، وملك من البلاد ما لم يملكه والده. لأنه وجد البلاد هادنة، والأموال وفيرة، والملك قد توطأ، والأمور قد استقامت. ويلخص ابن الخطيب[2]، ذلك في جملة أكثر إيجازاً بقوله عن يوسف بن تاشفين: فقد خطب به في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر.

ولم يكن التوسع هو معضلة الدولة صاحبة المشروع الوحدوي فحسب، بل إن الأداة التي سُخرت لتحقيق ذلك تكونت من جيش ضم عناصر من المرتزقة من سودان وروم وصقالبة[3]. وربما كان إضعاف الوحدة والعمل على تصدعها بسبب تواجد جيش مرتزقة.

2- نمو السلطة الدينية وتطرفها، وهو ما أجمعت عليه الدراسات قديماً وحديثاً[4]. وهناك من ذهب إلى أن هذه الظاهرة جاءت نتيجة قيام الدولة المرابطية على أساس ديني[5]، بل ثروة الفقهاء واستيلاءهم على زبدة خيرات الدولة أهلهم لتسلم هذا الموقع. وقد خلق هذا التشدد تناقضات داخلية في الحركة نفسها، وحسبنا معارضة فقيه السوس وجاج بن زلو اللمطي للإجراءات المتشددة التي اتخذها عبدالله بن ياسين، وهو ما يبين أن الاتجاه لم يكن سليماً كما يجب منذ بداية الحركة.

---

(1) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص199؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس،ق2، ص460.

(2) - ابن الخطيب: تاريخ المغرب، ص234.

(3) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص322؛ موسى ، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983م، ص107-108.

(4) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص26-27؛ عنان، محمد عبدالله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964م، ق1، ص411-412؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص75.

(5) - الناصري: الاستقصا، ج2، ص75.

3- عدم تجاوز الإطار القبلي: فبالرغم أن المرابطين تمكنوا من فرض سلطتهم على معظم القبائل، وأخذوا يتطلعون لتوحيد المغرب الإسلامي تحت ظل سلطة واحدة ودولة مركزية واحدة، إلا أن دولتهم الكبرى ظلت وفية للتراث القبلي يتضح ذلك من خلال تقسيم المناصب السلطوية على أبناء قبيلة لمتونة، وجعل كل النفوذ حكراً عليها[1].

4- عدم تطوير الإيديولوجية المالكية وإفراغها من مضمونها الوحدوي: تذهب المقولة الخلدونية إلى التأكيد بأن المالكية تناسب طبائع المجتمع البدوي، وهي نظرية تبدو صحيحة ومعلوم أن المالكية توافقت مع المد المرابطي خاصة في البداية، حين كانت البداوة لازالت الطابع المؤطر لسلوك أهل اللثام. أما وقد اتسعت الدولة وسيطرت على طرق الذهب، وغزتها مدينة الاندلس، فإن الإيديولوجية المالكية لم تستطع استيعاب هذه المتغيرات التي أصبحت قوية وسريعة الإيقاع. كما عجزت عن مسايرة واقع أصبحت التجارة عصب وجوده.

5- الإفلاس على الصعيد الاقتصادي: فمن المؤكد أن الثورة التومرتية وكذا مختلف ثورات المدن الأندلسية، بالإضافة إلى الحروب مع نصارى الشمال قد أثرت بشكل بليغ في ميزانية الدولة. وقد تفاقمت الأزمة المالية خاصة في عهد الأمير علي بن يوسف[2]. ويمكن إرجاع سبب ذلك – دون شك- إلى النفقات العسكرية التي أجبر عليها النظام المرابطي، وما رافق ذلك من قحط، فجفت الأرض وقلت المجابي وكثرت الضرائب. ويصور ابن الأحمر[3]، هذا الواقع المؤلم صورة رائعة بقوله: وغلت الأسعار. وعم الجور، وكثرت المحن بالعدوتين وانقطع السفر والأسباب، وكثر النهب، وانقطعت الطرق. وهكذا فإن الشرط الاقتصادي الذي تأسس عليه المشروع الوحدوي قد انهار. وكان لانهياره أثر في تعثره.

---

[1] - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص241؛ حسن: الحضارة الإسلامية، ص61، 68.
[2] - موسى: النشاط الاقتصادي، ص165-166.
[3] - ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص31.

6- الإفلاس على مستوى النظام السياسي: إن الحالة السياسية في المغرب قبل ظهور المرابطين قد أفرزت كيانات قزمية متناحرة، وأن الدولة المرابطية جاءت لتكتسح هذا التشرذم السياسي، وتقيم على أنقاضه دولة مركزية. إلا أن المرابطين بحكم انتمائهم إلى قوة هامشية بدوية لم يستطيعوا حسم الصراع سوى بالاستناد على القوة. ولأنهم كانوا يتطلعون إلى النفوذ والسلطان وتحقيق الأمجاد اعتماداً على القوة الحربية، فإن النظام السياسي الذي أقاموه كان نظاماً إقطاعياً عسكرياً لا يتجاوب مع العمل الوحدوي المنفتح، والقائم على سياسة التسامح والسلم التي هي خير ضمان لنجاح الوحدة المنشودة واستمراريتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا كان المغرب الأقصى متزعم حركة الوحدة؟

إن مثل هذا التساؤل مرتبط بسابقه، وهو يجسد ضمنياً أزمة قيادة الوحدة التي كانت ضمن العوامل المؤدية إلى تعثر المشروع الوحدوي، ويمكن الإجابة عن هذه المسألة من خلال مخلفات بعض الأحداث التاريخية.

فلا سبيل إلى الشك في أن الغزو الهلالي وجه ضربة قاصمة للزيريين والحماديين، حكام المغرب الأدنى والأوسط، وأثّر في قواهما الاقتصادية خاصة طرق القوافل التجارية التي تحولت نحو المغرب الاقصى، فكان ذلك بمثابة هدية للمرابطين، وحكماً موضوعياً برجوح كفة المغرب الأقصى[1].

ولعل موقع المغرب الأقصى هو الذي جعله يتصدى لهذه المهمة في قيادة الوحدة وضرب القوى التي كانت تعاكسه وخاصة القوى النصرانية، ولا أدّل على ذلك من أن مجريات الأحداث تبين أنه بمجرد ما أصبحت القوى المرابطية في أواخر عهدها عاجزة عن حماية الدولتين الزيرية والحمادية، تعرضت السواحل في المغرب الأوسط والأدنى لغارات الأسطول النورماني الذي أثخن

[1] - القبلي: مراجعات حول، ص16.

في الأهالي قتلاً وتنكيلاً، ثم تمكن من احتلال جربة سنة 530هـ/1136م، لتسقط المهدية بعد ذلك في يده سنة 543هـ/1149م[1]. هذا بالإضافة إلى أن الزيريين والحماديين كانوا في صراع وتنافس عائلي حول السلطة شغلهما عن قيادة الوحدة، ناهيك عن خراب بني هلال للبلدين معاً وهو ما جعلهما لا تطمحان بتاتاً إلى زعامة المشروع الوحدوي، أو حتى تبنيه أو استساغته. ولعل هذا ما يفسر موقف الحماديين منه.

السؤال الذي يطرح نفسه ألم يكن للموقف الحمادي بُعدً سلبي على المشروع الوحدوي؟ وقبل ذلك ما هو هذا الموقف بالذات؟

يمكن تلمس جانبين في الموقف الحمادي من المرابطين كقوة توحيدية: وجه سلمي وآخر عدائي. وسبب هذه الازدواجية ربما راجع إلى أن الحماديين لم يدركوا عمق المد الوحدوي، وظنوا أنه مجرد لعبة سياسية تدخل في إطار التوسع، وهنا يكمن سر الصدمة التي أثارتهم منذ بدأ الزحف المرابطي في المغرب حيث تصدوا له بحزم ودون هوادة[2].

ورغم أن سياسة المهادنة وعلاقة حسن الجوار كانت تظهر أحياناً بمظاهر مختلفة كالقرابة والمصاهرة[3]، فإن الحماديين اتخذوا موقف الحذر من المرابطين، بل ناصبوهم الحرب سنة 476هـ/ 1084م، ورووا غليلهم في الوقت الذي هبت القوات المرابطية إلى الأندلس[4]، حيث تحالفوا مع عرب بني هلال لضرب قواعدهم في المغرب الأوسط.

---

(1) - سالم - العبادي، عبد العزيز- أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1969م، ق2، ص246.

(2) - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص234.

(3) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص306، 312.

(4)- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص234.

وتعكس رسالة يوسف بن تاشفين إلى الناصر بن علناس[1]، الحمادي والتي أوردها ابن خاقان[2]، عمق أزمة الوحدة حين أشار فيها إلى خيبة الأمل التي أصيب بها عندما علم باستغاثة الناصر بن علناس ببني هلال لمهاجمة المغرب، في الوقت الذي كان من الواجب أن تتضافر الجهود لردع العدوان الصليبي، وهذه الأزمة تعبر عن أزمة القيادة، وهي أزمة موروثة حيث يتبين من رسالة أخرى كتبها أبو بكر بن القصيرة أن المنصور بن الناصر[3]، نهج سياسة أبيه العدوانية، ومن ثم استمرار الحرب الباردة[4]، التي كان لها أثر سيء على مصير الوحدة المغربية، وكان من مظاهرها التجاء أمراء الطوائف المخلوعين إلى المغرب الأوسط[5].

ويحاول بعض الباحثين تلمس الأعذار لحرب الأخوة الأعداء فمنهم من يحمّل المرابطين مسؤولية تكدر العلاقات فيصف أعمال الحماديين بأنها مجرد حرب دفاعية، بينما يرى البعض بأن هدف المرابطين انحصر بصد غارات عرب بني هلال ومنعهم من التسرب إلى المغرب[6].

---

(1) - الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي: أمير شجاع عمراني، من بني حماد. كان من سكان قلعتهم واستنكر عتّو قريبه بلكين بن محمد فتصدى له وقتله اغتيالاً وتولى بعده القلعة (قلعة بني حماد) ولكنه كره الإقامة فيها فبنى قريباً منها بالجبل قصوراً سميت بعده أسماء. واتسعت مملكته وبايعه أهل القيروان سنة 460هـ /1067م وبنى مدينة بجاية بين المغرب وإفريقية، أول ما اختطها حوالي سنة 457هـ/1064م وقال: بينها وبين جزائر مرغناي أربعة أيام وسماها الناصرية نسبة إليه وتوفي بها سنة 481هـ/ 1088م. انظر. تاريخ المغرب العربي: ص94-97؛ الأعلام: ج7، ص349.

(2) - ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله ت. 529هـ/1134م: قلائد العقيان، تح: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر- دار القلم، تونس، 1990م، ص249-254.

(3) - المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد: وللمنصور آثار عظيمة وقصور شامخة منيفة. وأخبار شهيرة. وتحرك إلى المغرب وقد صارت تلمسان إلى ملك المرابطين في جيوش عظيمة، اشتملت على اثني عشرة محلة. في شوال سنة ست وتسعين وأربعمائة. ونازل تلمسان. ثم أقلع عنها صلحاً. ولما قفل عن تلمسان، توفي 498هـ/1104م. انظر. تاريخ المغرب العربي: ص97.

(4) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص310.

(5) - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص239-240.

(6) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص311-312.

يبدو أن المرابطين استخدموا الأسلوب العسكري في إخضاع الدول المجاورة ويلاحظ غياب المشروع السلمي للوحدة، حتى أنهم اتبعوا القمع في المنهج الفكري فقد جوبهت به المذاهب غير المالكية كالاعتزال، وعلم الكلام.

إلا أن ذلك لم يحل دون وعي القاعدة الشعبية لسلبية هذا البعد، وهذا ما يفسر تحول عرب بني هلال الذين استعانة بهم القوى الحمادية لضرب المرابطين من قابليتهم العدوانية إلى حماسة جهادية تتبنى مقولة التوحيد التي تجسدت في مشاركتهم الفعالة مع المرابطين في معارك الأندلس.

ولحسن الحظ فإن العلاقة بين المرابطين وآل زيري بالمغرب الأدنى ظلت حسنة على العموم، خاصة في عهد المعز بن باديس الذي حكم بين 453-501هـ/1062-1108م. وحسن هذه العلاقة لا يفسر بانتماء الزيريين إلى البربر، بل لعدم وجود طرق تجارية محاذية لتخوم البلدين. وقد اعتبر أحد الدارسين، الرسالة الموجهة من طرف يوسف بن تاشفين إلى أمير المهدية بعد انتصار الزلاقة محاولة أولية على طريق وحدة المغرب العربي.

يتبين من خلال ما سبق أن آل حماد بالمغرب الأوسط هم المسؤولون عن عدم إنجاز مشروع الوحدة الذي تبناه المرابطون، ويُعزى ذلك لعدم تفهمهم إياه واعتباره عملاً توسعياً. ويتفرع عن هذا التحليل تساؤل آخر وهو: لماذا لم يواصل المرابطون زحفهم نحو المشرق، مفضلين الشمال فتعثروا في توحيد المغرب العربي؟ مع العلم أن إمارة بني حماد كانت من الضعف والهوان ما يجعلها لقمة سائغة في أيدي المرابطين؟[1].

تباينت استنتاجات الدارسين بهذا الصدد، فالبعض ذهب إلى حل الإشكالية انطلاقاً من مقولة الغلبة، ففسر ذلك بأن الحماديين تمكنوا من درع قوى الملثمين التي اضطرت إلى التراجع[2]،

[1] - السامرائي: علاقات المرابطين، ص313، 316.
[2] – السامرائي: علاقات المرابطين، ص308.

بينما عزا البعض ذلك إلى عامل عنصري يتجلى في إحساس بالتضامن العرقي مع صنهاجة الشرق[1]، في حين رد طرف ثالث ذلك إلى استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطين[2].

ربما كل هذه التفاسير لا تقوم على أساس صحيح، فعامل القرابة لم يحل دون اصطدام الجانبين مراراً كما مر من قبل، بينما يظل القول بتصدي الحماديين للمرابطين وإيقاف زحفهم قولاً يحيد عن الصواب، وآية ذلك أن قوة هؤلاء كانت من الأهمية ما يمكنها من سحق الحماديين بسرعة جارفة[3]، خاصة أن بعض القبائل الزناتية في المغرب الأوسط أصبحت تواليهم وتخطب ودهم. كما أن الخطر النصراني كان يحدق بالإمارة الحمادية، ناهيك عن قبائل بني هلال التي كانت غصة في حلقها. ومعلوم أن يوسف بن تاشفين تمكن من حصد زهرة القوى المسيحية في معركة الزلاقة، فكيف بالحماديين وهم في ذلك الموقف من الضعف والخور؟ أما سياسة المهادنة التي يجعلها البعض سبباً في هذا الانكفاء، فإنه حتى لو افترضنا صحة ذلك جدلاً، فإن القوى المرابطية لم يكن بإمكانها الالتزام بها نظراً للموقف الحمادي المتسم بالنزعة العدائية.

وربما التفسير السوي ما فطن إليه أحد الباحثين، حين أشار إلى أن غزوات بني هلال التي حولت الطرق التجارية نحو الغرب، جعلت المغرب الأقصى يدخل شبكة اقتصادية إفريقية غربية حتمت عليه تكثيف علاقاته التجارية مع أوروبا في وقت ازدادت فيه حاجت هذه الأخيرة إلى المغرب، ومن ثم تحويل الاتجاه من الشرق إلى الشمال. كل هذا ينهض حجة على أن عملية توحيد المغرب العربي الإسلامي لم تكن ممنهجة بطريقة موضوعية وسليمة[4].

(1) - محمود: قيام دولة، ص206.
(2) - نصر الله: دولة المرابطين، ص62-63.
(3) - محمود: قيام دولة، ص206.
(4) - القبلي: مراجعات حول، ص16-17.

ويمكن أن نتساءل كذلك حول ما إذا كانت المتاعب الداخلية قد لعبت دوراً أساسياً في تعثر المشروع الوحدوي؟

إن الكتب تجيب عن هذا التساؤل بكل وضوح. فثورة المهدي بن تومرت[1]، وانتفاضات المدن الأندلسية[2]، جعلت الروايات العربية تذكر بمرارة أن علياً بن يوسف بن تاشفين بعث إلى ولده تاشفين بالأندلس يطلب منه العودة فوراً للمغرب بجيوشه وعتاده وأمواله[3]. وهو ما يعني عملياً انكفاء المشروع الوحدوي وتقوقعه إن لم نقل بداية فشله في ظل التجربة الأولى.

وأيضاً يمكن القول بأن حدث الغزوة الهلالية يفسر جانباً من هذا التعثر في التجربة المرابطية؟ الواقع أن دور بني هلال في مسار الوحدة المغربية يبقى مشوشاً ومختلطاً. ويبدو أنه ذو وجه مزدوج. فلا سبيل لإنكار ما قام به هؤلاء من دور هدّام حيث خربوا الطرق التجارية وأفسدوا الحقول وساهموا في إقامة إمارات قزمية متصارعة[4]. إلا أنه لا يمكن كذلك نفي الوجه الثاني من العمل الهلالي، وربما هو عمل إيجابي، وفي صالح تمتين الوحدة المغربية وتدعيمها، فقد اختلطوا بالأهالي، وساعدهم في ذلك الزواج وصلات القرابة التي نمت وترعرعت على مر الأيام. وساعد هذا الاختلاط التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض القبائل البربرية خاصة تلك التي تحترف الرعي، فضلاً عن اتفاقهم في بعض الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وحفظ العهد. كما أن اللغة العربية التي أدخلوها كانت عامل توحيد أضيف إلى العامل العرقي لتكوين وبناء الوحدة بين أقطار المغرب العربي[5]. يضاف إلى ذلك مشاركتهم في عملية توحيد المغرب مع الأندلس.

---

(1) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص217-235.

(2) - انظر ترجمة عن بعض ثوار المدن الأندلسية. انظر. ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ/1286م: المُغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964م، ج1، ص57، 60-61.

(3) - ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص31.

(4) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص308.

(5) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص409-410.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو موقع وعي المغاربة من هذا المشروع الوحدوي؟

إن الحديث عن وعي وحدوي في هذه المرحلة الباكرة يعد نوعاً من المجازفة. ولكننا نستطيع القول إنه كان وعياً وجدانياً نابعاً من موقف عاطفي مجرد. ففكرة الوحدة ظلت حاضرة في مشاعر المغاربة وممارساتهم، بل إن ثقافتهم حملت أكثر من دلالة، وهو ما يمكن إعطاء الدليل عليه من غير صعوبة. ويكفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لنتأكد من ذلك. ولنأخذ على

سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد ت. 520هـ/1127م[1]، الذي يقيم في الأندلس، ورغم ذلك كان يمطر بوابل من طلبات الإفتاء أتية من القيروان وسبتة ومراكش وبجاية وغيرها من مدن المغرب الإسلامي. فالفرد العادي لم يكن يشعر بالغربة في محيط هذا المغرب الكبير، بل على العكس فإن شعوره بهذا الانتماء جعله لا يميز بين فقيه أو قاضي يعيش في مراكش أو المهدية أو قرطبة. ولعل هذا الشعور هو ما ترجمه فقيه متأخر[2]، جمع هذه النوازل في كتاب سماه المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. وفي هذا العنوان أكبر دليل على هذا التواصل الاجتماعي والديني في وعي المغاربة. وكان يكفي أن تُغير القوى النصرانية وغيرها على منطقة من هذا المغرب الكبير حتى تهب لصدها كافة قوى جماهير المغرب الإسلامي.

يتضح أن التجربة الوحدوية المرابطية مثلت التجربة الأم وأنها كانت تحمل عناصر المناعة والخلل في آن واحد. فتجذّرها في الذات الشعبية، وانصهارها في وعاء المد الوحدوي

(1) - هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة ومفتيها. روى عن أبي علي الغساني، وأبي مروان بن سراج، وخلق، وكان من أوعية العلم. له تصانيف مشهورة، عاش سبعين سنة. توفي سنة 520هـ/1126م. انظر. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد ت. 599هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، ط1، 1989م، ج1، ص74؛ العبر: ج2، ص414؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 373-374؛ شذرات الذهب: مج6، ص102.

(2) - هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشرسي المتوفي بفاس سنة 914هـ/1508م، وقد نشر الكتاب نشراً حديثاً بعناية وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالمملة المغربية وثم طبع في بيروت سنة 1981م في 12جزء وجزء خاص بالفهارس.

الإسلامي، وتسلحها بمشروع إيديولوجية إصلاحية، وتدعيمها بقاعدة مادية تجلت في سيطرة كلية على طرق التجارة بعيدة المدى، فضلاً عن إفلاس النظام السياسي القبلي– الأسروي– وحضور عامل قرابة الدم، كانت عناصر تعطي الفكرة الوحدوية ديناميتها وتمدها بصفات الاستمرارية والدوام. غير أن هذه كانت تحمل في ذاتها أخطاراً لايخفيها النجاح المؤقت الذي حققته التجربة. فالأزمات البنيوية التي عرفتها الدولة المرابطية كقوة توحيدية، وتطرف السلطة الدينية، وتفريغ الإيديولوجية المالكية من مضمونها الوحدوي والإفلاس على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، وعدم تكسير القشرة القبلية وتوليد طبقة اجتماعية منسجمة وقادرة على فرض سيادتها، فضلاً عن موقف الدول المجاورة التي لم تدرك عمق البعد الوحدوي، ففضلت إشهار الحرب الباردة رداً على زعامة المغرب الأقصى، ولم تستجب بالتالي للتطلعات الوحدوية[1].

4– خلاصة:

وهكذا نرى بأن هناك عدة دول حاولت القيام بوحدة تشمل فيها المغرب العربي ولكنه لم يكتب لها النجاح، ومن هذه الدول دولة المرابطين وعلى الرغم من أن المشروع الوحدوي حاضر في ذهن المغاربة على الصعيد الرسمي والشعبي، ولكن هذا المشروع الوحدوي تعرض لمقاومة، من بعض الدول ولاسيما الحماديين الذين وقفوا في وجه هذا المشروع لأنهم لم ينظروا له إلا نظرت توسع للدولة المرابطية الأمر الذي جعل يوسف بن تاشفين يوجه نظره نحو الأندلس وبالفعل تمكن من ضم الأندلس والتخلص من دول ملوك الطوائف وذلك بموافقة علماء المشرق والمغرب.

[1] - بوتشيش، إبراهيم القادري: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 1994م، ص63-86.

5- خاتمة:

استقرت حصيلة الدراسة التي انجزت حول المشروع الوحدوي المرابطي المغربي على النتائج والاستنتاجات التالية:

1. أول ما يمكن أن يلاحظ في المشروع الوحدوي المرابطي كونه حاضر على الصعيد الرسمي والشعبي على السواء.
2. أما على الصعيد الرسمي فقد جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس برنامجها السياسي، وعلى الصعيد الشعبي فإن هاجس الوحدة كان حاضراً شعوراً وممارسة.
3. يستقرأ من الدراسة أن من المظاهر التي تفصح عن تجذر هذه الوحدة الشعبية، الحج إلى الديار المقدسة، والتجارة التي شكلت إحدى الأدوات التي عكست هذا المنظور الشعبي للوحدة، فالعداء السياسي بين بني حماد والمرابطين لم يؤثر في جماهير التجار، كما تتجلى مظاهر التوحد الشعبي كذلك حتى في الأطعمة، وفي التصوف الذي يمثل معطى ثابت من ثوابت الوحدة المغربية على الصعيد الشعبي.
4. يستشف من الدراسة بأن المشروع الوحدوي المرابطي لم يكن بمعزل عن منظومة وحدة دار الإسلام وخلافة الشرق.
5. تنم الدراسة على أن المشروع الوحدوي المرابطي انطلق أول مرة من الجنوب، ومن طرف الأمازيغية المحلية، عكس المحاولات السابقة التي انطلقت من الشرق.
6. من الملاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي تسلح بإيديولوجية إصلاحية تمثلت بالمذهب المالكي.
7. من جملة الملاحظات التي يمكن أن تذكر بصدد المشروع الوحدوي المرابطي هو أن هذا الأخير ارتكز على عامل لا يمكن انكاره ويتعلق الأمر بقرابة الدم فبنو حماد هم أصلاً بنو عمومة القبائل الصنهاجية.

8. تنم الدراسة عن انشغال القوى المرابطية بردع تطلعات الصليبية وتحجيم دور النصارى إلى حد أنها لفظت أنفاسها وهي في زهرت شبابها.
9. يستشف من الدراسة بأن هناك عدة عوامل اجتمعت وأدت إلى تعثر المشروع الوحدوي المرابطي.

6- قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

1.ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت.658هـ: التكملة لكتاب الصلة، تح: عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م.
2.ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت. 658هـ: المقتضب من تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط2، 1983م.
3. الأتابكي، يوسف بن تغري بردي ت. 874هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م.
4.ابن الأحمر، إسماعيل ت. 807هـ: بيوتات فاس الكبرا، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
5.الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله ت. 564هـ: المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبع بريل، مدينة ليدن المحروسة، د.ت.
6.البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ت. 487هـ: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

7.التميمي، محمد بن عبدالكريم ت. 604هـ: المستفاد في مناقب العباد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح، محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ط1، 2002م.

8.ابن الجزري، أبي الخير محمد بن محمد ت. 833هـ: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2006م.

9.ابن خاقان، الفتح بن محمد ت، 529هـ: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، دار عمّار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.

10.ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تح:أحمد مختار العبادي– محمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

11.ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامي. تونس، ط1، 1912م.

12.ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت. 808هـ: مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى دوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت– لبنان، 2001م.

13.ابن خلدون، عبد الرحمن ت. 808هـ: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت– لبنان، 2000م.

14.ابن خلكان، أحمد بن محمد ت. 681هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

15.الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت. 696هـ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة – مكتبة الخانجي، تونس– مصر، ط2، 1968م.

16.ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ت.1092هـ: كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، ط1، 1967م.

17.الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1985م.

18.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تح: طيّار آلتي قولاج، د.د، استانبول، 1995م.

19.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط1، 1995م.

20.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م.

21.ابن أبي زرع، علي الفاسي ت. 726هـ: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999م.

22.أبي زكرياء، يحيى بن محمد ت.782هـ: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903م.

23.ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي ت. 617هـ: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م.

24.ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ: المُغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964م.

25.ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ: رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م.

26.الصومعي، أحمد التادلي ت.920هـ: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح: علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م.

27.الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد ت. 599هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري– دار الكتاب اللبناني، القاهرة– بيروت، ط1، 1989م.

28.ابن عبد الملك، محمد بن محمد المراكشي ت. 703هـ: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م.

29.ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي ت.695هـ: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان– إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت– لبنان، ط5، 1998م.

30. العزفي، أبو العباس أحمد بن محمد ت. 633هـ: دعامة اليقين في زعامة المتقين « مناقب الشيخ أبي يعزى»، تح: أحمد التوفيق، مطبعة المعارف، الرباط، د.ت.

31.ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ت. 1089هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط– محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط1، 1989م.

32.ابن فرحون، ابراهيم بن علي المالكي ت. 799هـ: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت.

33.ابن القاضي، أحمد الكناسي ت. 1025هـ: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

34.القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي ت. 544هـ: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: سعيد أحمد أعراب، د.د، تطوان، 1982م.

35.ابن قنفذ، أحمد الخطيب القسنطينى ت. 810هـ: أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط،1965م.

36.ابن الكردبوس، عبدالملك التوزري ت. بداية القرن السابع الهجري: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تح: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.

37.مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، مطبعة جامعة الاسكندرية، د..م، 1958.

38.مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م.

39.مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبدالقادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005م.

40.المقري، أحمد بن محمد ت. 1041هـ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، ط5، 2008م.

2– المراجع:

1.أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م.

2.أكنوش، عبد اللطيف: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، دار إفريقيا الشرق، د.م، د.ت.

3.بل، الفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط3، 1987م.

4.بوتشيش، إبراهيم القادري: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت– لبنان، ط1، 1994م.

5.حركات، ابراهيم: المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م.

6.حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م.

7.الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط15، 2002م.

8.سالم – العبادي، عبد العزيز– أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، 1969م.

9.السامرائي، خليل ابراهيم: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1985م.

10.شلبي، هند: القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983م.

11.ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني ت. 1224هـ: أزهار البستان في طبقات الأعيان، تح: عبدالسلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1971م.

12.عنان، محمد عبدالله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964م.

13.القبلي، محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر– الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م.

14.الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس ت. 1345هـ: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حزة بن علي الكتاني، د.د، الرباط – المغرب، 2005.

15.كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، د.د، طنجة، ط2، 1960م.

16.محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م.

17.مراد، يحيى: معجم تراجم أعلام الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2004م.

18.موسى ، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983م.

19.الناصري، أحمد بن خالد ت. 1315هـ: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري– محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م.

20.نصرة الله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، 1985م.

البُنية المورفولوجية عند للهوموإركتوس

الدكتور: عبد الله السليمان
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة دمشق.

الملخص بلغة عربية:

إن دراسة مورفولوجيا الهوموإركتوس من خلال الهياكل العظمية مع مراعاة اللدانة النمائية (النمط الظاهري)؛ سيقدم لنا الكثير من الأجوبة عن أنماط التكيف التي سلكها أفراد الهوموإركتوس في سبيل الاستجابة لتحدي شروط المناخ والطبيعة المحيطة بهم، وأثر البيئة والتبدل المناخي على تلك البنية المورفولوجية، وقدرتهم على التأقلم معها، وأثر تلك البنية المورفولوجية على الدماغ ونموه. ولعل أهم ما يمكن استعرضه من مورفولوجيا هي الوقفة المنتصبة والسير على قدمين، وديناميكية حركة القدم والحوض والركبة، والساقين الطويلتين، والعلاقة الجدلية بين الوقفة المنتصبة واليد الحرة، والقدرة على التعرق، وتجدر الإشارة أن الهيكل العظمي لفتى توركانا قدم لنا الكثير من المعلومات حول مورفولوجيا الهوموإركتوس.

Morphological structure of Homo erectus

Abstract

Studying Homo erectus morphology through skeletons, taking into account developmental plasticity (phenotype), will provide us with many answers about the adaptation patterns Homo erectus individuals followed in response to the challenging climatic and natural conditions surrounding them, the impact of the environment and climate change on this morphological structure, their ability to adapt to it, and the impact of this morphological structure on the brain and its development. Perhaps the most important morphology that can be reviewed is the upright stance and walking on two feet, the dynamics of foot, pelvis, and knee movement, the long legs, the dialectical relationship between the upright stance and the free hand, and the ability to sweat. It is worth noting that the skeleton of the Turkana Boy has provided us with a great deal of information about Homo erectus morphology.

مقدمة:

يهتم علماء ما قبل التاريخ بدراسة مورفولوجيا الهياكل العظمية لما تقدمه من معلومات مفيدة عن جنس صاحب الهيكل العظمي، ومتوسط عمر الوفاة، وأنماط النمو، وحتى الكسور والتشوهات والأمراض البيولوجية التي كان يعاني منها، وإن كانت سبباً أساسياً في وفاته من عدمه، لا بل إن علماء ما قبل التاريخ تمكنوا من خلال نقاط ارتباط العضلات على العظام أن يعيدوا تقدير حجم العضلات وشكلها، وهذا بدوره يسهل فهم أو تصور أقرب ما يكون للحقيقة عن مورفولوجيا كل فرد من جنس «هومو Homo» سبقنا ومشى منتصباً على سطح هذا الكوكب، وأنماط سلوكهم، وطبيعة الحركة البدنية، وكثير من الوظائف الحيوية، فعلى سبيل المثال إن دراسة مورفولوجيا الجمجمة ومعرفة حجم الأنف والعينين –على سبيل المثال– قد يكون مفيداً في معرفة قدرات حواس البصر والشم. كما إن الجهاز السمعي كله موجود مثلاً بحفظ العظم الصدغي، ومن المفيد التعرف على عظم الأذن الذي يقع ضمن تجويف الأذن الوسطى للجزء القذالي؛ حيث تقع هناك ثلاثة عظام (المطرقة والسندان والركاب)، إن دراسة بنيته المورفولوجية سيساعدنا على فهم قدرات مثل السمع والتوازن. هذا بالمجمل أما يخص الأدبيات العلمية عن الهوموإركتوس فإنها متواضعة في الموروث الثقافي العلمي العربي، حالها حال أدبيات ما قبل التاريخ كافة. وحتى على مستوى اللغات الأجنبية لم تكتمل أطر الصورة بعد؛ فالتفسيرات متباينة ومشوشة بسبب سوء الحفظ، أو التقديرات غير الدقيقة، هذا ناهيك عن شح المكتشفات الأنثروبولوجية. واليوم وبعد الطفرة المعرفية الجيدة في العقدين الأخرين نتيجة المكتشفات الجديدة والبحوث والدراسات التي تناولت الهوموإركتوس، صار ممكنا رسم صورة عامة عن مورفولوجيا الهوموإركتوس بناءً على مجموعة من الهياكل العظمية الآسيوية والإفريقية، وذلك من خلال دراسة هذه الهيكل العظمية وكل ما يتعلق بها من وقفه منتصبة والسير على القدمين، لكن بحذر علمي شديد؛ نظراً للاختلافات المورفولوجية الإقليمية الطفيفة، فالفروق بين النوع الآسيوي والأفريقي H. erectus/ergaster تكاد أن تكون واضحة للعيان، فرغم النوع الواحد إلا أن المناخ لعب دوراً كبيراً في ترك لمسات مورفولوجية فارقة بين سكان المنطقتين، امتدت لتشمل فروقات في الهيكل العظمي وحجم الفرد، واستناداً لتحليلات

العظم الصدغي التي قام بها الأستاذ تيرهون Terhune سنة 2007م كان أفراد الهوموإركتوس أكثر من حملوا فروقاً مورفولوجية فيما بينهم، ويرى كثير من علماء ما قبل التاريخ أن هذه الفروقات تندرج في إطار ما أطلقوا عليه مسمى «اللدانة النمائية»؛ الناتجة عن تكيفات تفرضها البيئة على بنية جسد الفرد بما يناسب وسطه المحيط.

تمهيد:

لم يكن الحديث عن مورفولوجيا الهوموإركتوس سهلاً بسبب ندرة المكتشفات العظمية الكاملة، وقد تعلم علماء الحفريات البشرية الكثير من سلسلة من الاكتشافات الأحفورية منذ سبعينيات القرن العشرين في إفريقيا[1]، حيث قدم حوض بحيرة توركانا Turkana (كانت تسمى بحيرة رودولف) في كوبي فورا Koobi Fora شمال كينيا، أهم نماذج لعظام الهوموإركتوس في إفريقيا، والتي ساعدت على فهم مورفولوجيا الهوموإركتوس وبنية أجسادهم، والعينات الرئيسية هي: جمجمتان، وتسعة فكوك غير مكتملة، وهيكل عظمي جزئي، وبعض عظام الأطراف المعزولة[2].

إن أقدم عينة لأفراد الهوموإركتوس في السجل الأحفوري حصلنا عليها سنة 1981م من على مرتفعات أثيوبيا في منطقة ملكا كانتور Melka Kunture موقع جاربا أربعة Garba IV في السوية E، حيث تم العثور على فك رضيع تم تأريخه بواسطة أحدث الأساليب المغناطيسية؛ فتبين أنه يعود لنحو 2 مليون سنة خلت، وهكذا فإنه يمثل واحدة من أقدم عينات الهوموإركتوس على الإطلاق .[3]

كما عثر رتشارد ليكي R. Leakey على الشاطئ الشرقي لبحيرة توركانا سنة 1975م على جمجمة محفوظة بشكل جيد جداً وكاملة لشاب من أفراد الهوموإركتوس، وتعرف في أوساط المختصين باسم جمجمة توركانا الشرقية East Turkana، وهي جمجمة كاملة لشاب من أفراد

---

[1]((Stefoff, R., *First humans; (Humans: an evolutionary history)*., Marshall Cavendish Benchmark, New York 2010, p.86.

[2]() Klein, R, G., *Hominin dispersals in the Old World*., Chapter 3, January., 2005, p.86.

[3]((Mussi, M., & Matthew M. Skinner., & Rita T. Melis., & Joaquîn Panera., & Susana Rubio-Jara., & Thomas W. Davies., & Denis Geraads., & Hervé Bocherens., & Giuseppe Briatico., & Adeline Le Cabec., & Jean- Jacques Hublin., & Agness Gidna., & Raymonde Bonnefille., & Luca Di Bianco., & Eduardo Méndez -Quintas., *Early Homo erectus lived at high altitudes and produced both Oldowan and Acheulean tools*, Science 382, 2023, pp.713-714.

الهوموإركتوس سعتها تتراوح ما بين 850– 900 سم^3، وقد أرخت بنحو 1,9 مليون سنة، بواسطة البوتاسيوم –أرجون potassium–argon[4]. إن عينة جاربا وجمجمة توركانا الشرقية هما أقدم عينتان معروفتان عن الهوموإركتوس حتى تاريخنا هذا. في حين أن آخر عينة عظمية وصلتنا بشكل ثبات وموثق لفرد من أفراد الهوموإركتوس ظهرت في جنوب شرق آسيا، في نغاندونغ Ngandong (إندونيسيا) قبل 110 ألف سنة، حيث عدت قبلتهم التي هاجروا إليها بعد أن خرجوا من إفريقيا؛ ونغاندونغ قرية صغيرة تقع في منطقة بلورا Blora، في وسط جزيرة جاوا، على نهر سولو Solo، في منطقة ذات تضاريس جبلية صعبة وغابات ومناخ رطب[5]، أما فيما يخص تصنيف رجل نغاندونغ فهناك دراسة علمية ومفصلة عن البقايا الأحفورية من نغاندونغ؛ هي دراسة سانتا لوكا Santa Luca 1980م[6]، ويؤكد توصيف نغاندونغ أن الهوموإركتوس متنوع إقليمياً استناداً إلى اللدانة النمائية أو النمط الظاهري.[7]

أما من حيث رقعة الانتشار المكاني؛ فقد تبين منذ اكتشافات الهوموإركتوس الأولى؛ أنهم استوطن قارات العالم القديم الثلاث، وانتشر في مناطق جغرافية واسعة ومتباينة مناخياً؛ وهذه المناطق تشمل جنوب وشرق وشمال إفريقيا، وتركيا وألمانيا وإسبانيا وجورجيا، والمشرق والمغرب العربي، والصين واندونيسيا[8]، وعاشوا في مناطق جغرافية مختلفة منها المنخفض كما هو الحال قرب بحيرة توركانا في الوادي المتصدع أو الوادي الخسيف Rift Valley، وفي مناطق مرتفعة

[4]() Tattersall, I., *Homo sapiens has had the earth to itself*., Scientific American., 2003, p.23.

[5]((Cremo, M., *Hidden History of the Human Race*., California.,1994, p.129.

[6]((Bartstra, Gert-Jan., *Indonesia*; *in the period of Homo sapiens neanderthalensis and contemporaries*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization 1994, p.446.

[7]((Anton, S. C., & Taboada, H. G. & Middleton, E. R., & Rainwater, Ch. W. & Taylor, A. B. & Turner, T. R. & Turnquist, J. E. & Weinstein, K. J. & Williams, S. A., *Morphological variation in Homo erectus and the origins of developmental plasticity*., The Author(s) Published by the Royal Society, 13 June 2016, p.1.

[8]((Radtke, T., *Physical Anthropology*; An Open Educational Resources Publication by Taft College Authored and compiled by Sarah Etheredge, College of the Canyons, Version 2; 2019, p.171.

نسبيا؛ بلغ ارتفاعها نحو 2200م فوق مستوى سطح البحر، كما هو حال مع أفراد الهوموإركتوس الذين عاشوا فوق مرتفعات أثيوبيا في منطقة ملكا كونتوري جنوب أديس أبابا بنحو 50كم، لقد كان مناخ العصر البليستوسيني Pleistocene على هذا العلو المرتفع أكثر برودة ورطوبة من المناخ الموجود في المرتفعات المنخفضة للوادي المتصدع حيث عثر على معظم الأدلة الأحفورية لأشباه البشر .[9]

أولا: فتى توركانا النموذج الأمثل لبنية مورفولوجيا الهوموإركتوس:

اعتمد علماء ما قبل التاريخ في دراسة مورفولوجيا الهوموإركتوس –باستثناء الجمجمة– على عظامهم التي عثر عليها بوفرة في أفريقيا وجورجيا، وبدرجة أقل في جنوب شرق آسيا، مستندين بشكل أساسي على فتى توركانا، الذي كشف النقاب عنه في أواخر آب سنة 1984م ؛ عندما كان كامويا كيمو Kamoya Kimeau عضو فريق عالم الإنسانيات التابع للأستاذ آلان ووكر Alan Walker (جامعة بنسلڤانيا Pennsylvania) ينقب على طول الضفة الجنوبية لنهر ناريوكوتوم Noriokotome سريع الزوال، على بعد نحو خمس كيلومترات من الشاطئ الرملي الغربي لبحيرة توركانا في الوادي الخسيف شرق إفريقيا؛ وهذا الوادي كان مصدراً للعديد من اكتشافات أشباه البشر فيما قبل التاريخ. لقد اختار كيمو مكاناً صعباً وغير واعد، على ارتفاع طفيف تحميه شجرة أكاسيا Acacia؛ على طول قناة مجرى جاف غرب بحيرة توركانا تحت أشعة الشمس. كان السطح مليئاً بحصى الحمم البركانية السوداء، ومن المحتمل أن أية أحافير في المكان كان من المفترض أنها قد تآكلت نتيجة دهسها من قبل قطعان الماعز والجمال المحلية. بدت فرص كيمو ضئيلة، لكنه تغلب على مثل هذه الصعاب في تجاربه السابقة، فهو منقب الحفريات الأكثر براعة في كينيا. قام العمال الميدانيون بغربلة الرواسب القريبة، وبالفعل سرعان ما تم اكتشاف قطعة من العظم الأسود بحجم علبة الثقاب، يصعب تمييزها عن الحصى المحيطة بها، وعندما التقطها كيمو أدرك أنها جاءت من جبهة نوع منقرض من أحد أشباه البشر. لقد جذب اكتشاف كيمو الأستاذ ووكر إلى مكان الاكتشاف، وعلى مدى السنوات الأربع التالية قادوا الفريق الذي قام بحفر الرواسب القريبة بدقة، ظهر المزيد والمزيد من العظام، حتى تمكنوا في النهاية من اكتشاف 3– 4 جماجم، بالإضافة إلى هيكل عظمي لفتى مراهق؛ عثر عليه في السوية الأثرية

[9]((Mussi, M., et. la., Op. Cit., 2023, p.713

الثالثة (3NK)، اصطلح علماء الآثار على تسميته بـ "فتى توركانا Turkana Boy"[10]، الهيكل العظمي كامل تقريباً بلغ مجموع عظامه نحو مائة وثماني عظام، أي ما يمثل 80% من مجموع عظام جسده، ونحو 70% من عظام جمجمته بالإضافة إلى الأسنان، وبينوا أنه ذكر بالغ؛ استناداً لشكل عظم الحوض .[11]

موقع اكتشاف فتى توركانا

لقد حصل هذا الهيكل العظمي لفتى توركانا على الرمز العلمي (KNM–WT 15000) وفق دليل المتحف الوطني في كينيا، وأرخ بواسطة البوتاسيوم–أرغون (Ar/K) بـ 1,6 مليون سنة. يُعد فتى تُركانا أفضل عيّنة لفرد من أفراد الهوموإركتوس؛ قُدّر وزنه بنحو 150 باون؛ أي ما يعادل 68كغ، بينما قُدّر طوله عند موته بـ (162سم)، ولو عاش إلى سن البلوغ كان من المرجح أنه سينمو حتى يصبح طوله (182سم)؛ على فرض أن نمو أفراد الهوموإركتوس شبيه بأنماط نمونا، وربما أن أفراد الهوموإركتوس يتفوقون علينا بمعدلات النمو، ولعله كان إحدى أكثر الاكتشافات الأثرية إثارة في علم الأنثروبولوجيا[12]. إذ كان يُعتقد لفترة طويلة أن الهوموإركتوس صغير الحجم،

[10]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.89.

[11]((Bribiescas, Richard G., *Men: evolutionary and life history*., First Harvard University Press paperback edition, 2008, p.57.

[12]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.87.

لكن اكتشاف الهيكل العظمي لفتى توركانا صحح هذا المفهوم[13]، كما تبين أن لأفراد الهوموإركتوس جسد كبير، يشبه في الحجم والشكل العام جسد الإنسان العاقل[14]، وهيكل عظمي يشبه إلى حد ما هيكلنا العظمية[15]، وإن أطوال الذكور منهم تراوحت بين 160–185سم، وبلغت أوزانهم نحو 68كغ، وكان الذكور أكبر من الإناث بنسبة تراوحت بين 20 –30 %، وهي نسبة قريب من اختلاف الحجم الذي نشاهده في جنسنا البشري[16]. وإن كانت هناك دراسات حديثة أثبتت استناداً لبعض اكتشافات العظام المتحجرة والتحليلات المورفولوجية، أن ازدواج الشكل في حجم الجسم عند أفراد الهوموإركتوس كان أعلى بكثير مما لوحظ عند الإنسان العاقل.[17]

عظام فتى توركانا في متحف كينيا

لقد ساعدت الطريقة التي توفي فيها فتى تركانا؛ هيكله العظمي على النجاة من التحلل نتيجة عوامل الطبيعة أو حتى الحيوانات المفترسة، ما ساعدنا في الحصول على هيكل عظمي

[13]() Coppens, Y., & Denis Geraads., *The period of Homo Habilis and Homo Erectus*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization 1994, p.161.

[14]() O'Connell, J. F., & Hawkes, K., & Blurton Jones. N. G., *Grand mothering and the evolution of Homo erectus*., Journal of Human Evolution 36, 1999, p.462.

[15]() Tattersall, I., *Homo sapiens has had the earth to itself*., Op. Cit., 2003, p.22.

[16]((Radtke, T., Op. Cit., 2019, p.171.

[17]((Hatala, K. G., & Neil t. Roach & Kelly R. ostrofsky & Roshna e. Wunderlich & Heather L. Dingwall & Brian A. Villmoare & David J. Green & John W. K. Harris & David R. Braun & Brian G. Richmond., *Footprints reveal direct evidence of group behavior and locomotion in Homo erectus*., Scientific Reports, June 2016, p.5.

مكتمل لفرد من أفراد الهوموإركتوس عاش على سطح هذا الكوكب قبل نحو 1,6 مليون سنة. لقد أمضى علماء الاختصاص سنوات في دراسة الطبقات الأثرية التي عثر فيها على هذا الهيكل العظمي؛ حتى أنهم قاموا بتنخيل جميع الرسوبيات التي رفعوها من حول الهيكل العظمي، واستخلصوا منها عدداً من عظام الثديّات والطيور المتكسرة وبقايا أسماك وزواحف مائية، في منخفض قطره 3 أمتار، لم يعثر على أدوات حجرية مع هذا الفتى، رغم أنه من المؤكد أنه صنعها واستخدمها. إن ما تقدم دفع الباحثين للتخمين أن الفتى عندما مات انجرفت جثته إلى مستنقع واسع على سهول ضفاف نهر قديم أو سقط فيه ثم توفي، ثم تفسخت جثته في هذا المستنقع بعد فترة من الوقت. لكن كيف توفي؟ نحن لا نعلم لماذا كان هذا الفتى المراهق وحده على ضفة ذلك المستنقع وسط الأعشاب الكثيفة؟ وماذا كان يصنع عندما سقط فيه؟ في الواقع لقد فارق الحياة ووجه مقلوب، أي أنه ربما مات مختنقاً في الطين بعد أن غمر كامل جسده، دون أن تتعرض له آكلات اللحوم، التي لو شمت رائحته لقطعته إرباً. وإن كان الفحص البيولوجي قد أظهر أنه مصاب بالتهاب في لثته، تعرض له بعد سقوط الضرس اللبنية وظهور ضرس دائم، وربما أن هذا الالتهاب تسبب بتسمم في الدم ما أدى إلى الوفاة. في النتيجة توفي المراهق في هذا المستنقع وساهمت حمولة الرواسب الثقيلة في مياه المستنقع بحفظ جسده بعد أن غطته بالكامل، فتحجرت عظامه فيها، وهكذا قدر لهيكله العظمي أن ينجو من مصير ما كانت تواجهه الهياكل العظمية لأبناء جلدته في بيئة مفتوحة مثل بيئة حوض تركانا، فغالبها تعرض للبعثرة وربما للتحطيم الكامل أو الجزئي نتيجة الطقس والحيوانات المفترسة.

لقد توفي فتى توركانا قبيل بدء سنوات المراهقة؛ فاستناداً إلى انغلاق دروز الجمجمة، وانغلاق الصفائح المشاشية في المفاصل، يبدو أن عمره كان ما بين 11 – 12 سنة. ومع ذلك فإن أسنانه التي تم فحصها بالتفاصيل المجهرية، تظهر خطوط نمو تشير إلى أنه كان أصغر سناً؛ ربما كان عمره 8 أو 9 سنوات[18]، ولكن حتى في هذه السن المبكرة، كان فتى توركانا قد طور مناطق واضحة من الارتباط العضلي في عظامه الطويلة، مما يدل على أسلوب حياة شاق للغاية[19]. ومن فحص أضراسه من قبل الأستاذين ألن والكير وريتشارد ليكي في سنة 1993م،

[18](Stefoff, R., Op. Cit., 2010, p.87.

[19](Coolidge, F. L., & Thomas Wynn., *The Rise of Homo sapiens*; *The Evolution of Modern Thinking*., United Kingdom 2009, p.107.

تبين أنها لم تكن قد نبتت بالكامل عند وفاته، إذ يحتوي الفك السفلي على قواطع دائمة وأنياب، بينما كان يحوي الفك العلوي على أضراس لبنية، وقد يعني هذا الدليل أن نوع فتى توركانا نضج بسرعة أكبر من البشر المعاصرين.[20]

لقد كان فتى توركانا نحيفاً جداً، ووركه صغير (حتى بالنسبة لصبي)، امتلك رقبة فخذية طويلة ("ذراع" عظم الفخذ المتصل بالحوض)، وكان لديه أطراف طويلة نسبياً مقارنة بطوله[21]. رأى فيه عالم الحفريات القديمة إين تاترسال Ian Tattersall من المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، أنه الأقرب لصورتنا البشرية في معظم خصائصه الجسدية (طبعا باستثناء حوضه الأضيق مما هو عند فتيان الإنسان العاقل)، حتى أنه كان يبدو من بعيد مشابهاً جداً على نحو مدهش أولئك للرعاة النحيلين الذين يعيشون في البيئات الاستوائية المماثلة في الوقت الحاضر ويعيشون حول بحيرة تُركانا اليوم، والصوماليون Somali والماساي Masai وغيرهم من المجموعات العرقية الحديثة في شرق أفريقيا؛ التي يمتاز أفرادها بمورفولوجيا عامة للجسد تتلخص في جسم وأطراف طويلة ونحيلة. في الواقع إن هذه البنية المورفولوجية هي تكيف في بنية الجسد لدى بعض مجموعات الأشخاص الذين يعيشون في مناخات حارة وجافة؛ لأنها تحتوي على نسبة أعلى من سطح الجلد إلى كتلة الجسم مقارنة بالأجسام الأقصر والأثقل، إن ارتفاع نسبة مساحة السطح إلى الكتلة، يمكن أن يخلص الجسم كمية حرارة أكبر، مما يساعد الفرد على البقاء بارداً. وهكذا كان لدى فتى تُركانا نوع جسم كلاسيكي متكيف لطرح الحرارة، في مقابل أفراد الهوموإركتوس الذين عاشوا في الصين –الأقصر والأكثر سمنة– ما منحهم نسبة مساحة سطحية أقل إلى كتلة الجسم، وهو ما كان سيبقي أجسادهم أكثر دفئاً في الأوقات الباردة.[22]

[20]((Walker, A., & Leakey, R., *The Nariokotome Homo erectus Skeleton.,* Cambridge, MA: Harvard University Press 1993.

[21]((Coolidge, F. L., & Thomas Wynn., Op. Cit., 2009, p.108.

[22]((Stefoff, R., Op. Cit., 2010, p.87.

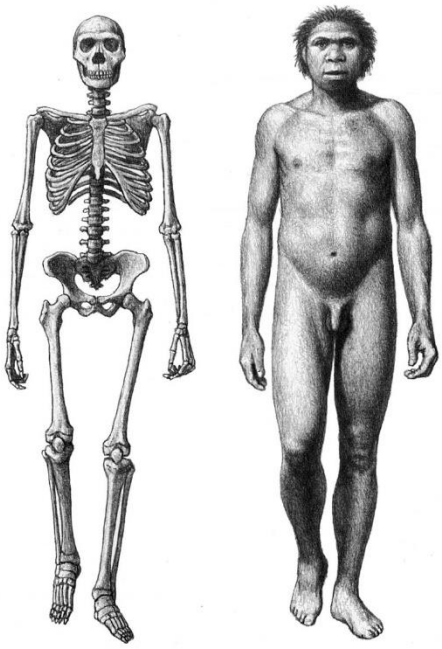

إعادة بناء فتى توركانا

ولما كان فتى تُركانا مثالا نموذجياً عن الهوموإركتوس فإن مورفولوجيا الجمجمة والوجه؛ تظهر أن له اختلافاً ظاهراً بشكل لافت للنظر عن ذرية الإنسان العاقل، فجمجمته طويلة ومنخفضة، إلا أنه لم يكن لفتى توركانا جمجمة سميكة الجدران؛ كما هو الحال في أقاربه من أفراد الهوموإركتوس الآسيويين. كانت جبهته (العظم الأمامي) مسطحة ومتراجعة نحو الخلف، وتنحدر لتندمج بزاوية مع الحاجب العظمي فوق عينيه. كان أنفه إنسانياً عادةً في بروزه الأمامي، وخياشيمه متجهة نحو الأسفل، وفي هذا اختلف عن الأسترالوپيثك Australopithecines والهوموهابيل Homo habilis. كما كان وجهه ملفتاً للنظر بسبب طوله الكبير من الأعلى إلى الأسفل، وكان فكاه الضخمان بارزين إلى الأمام. تحتوي هذه الفكوك على أسنان مضغ أكبر بكثير من أسناننا، حتى لو كانت أصغر من المتوسط لدى أفراد الهوموهابيل أو الأسترالوپيثك. أما العظم الموجود أسفل أسنانه الأمامية السفلية فكان مائلاً بشكل حاد إلى الخلف، مما يعني أنه كان بلا ذقن تماماً.[23]

[23]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.88.

ثانياً: أثر البيئة على البنية المورفولوجية عند أفراد الهوموإركتوس:

لما كان أفراد الهوموإركتوس قد سكنوا مناطق جغرافية متنوعة على امتداد قارات العالم القديم الثلاث، فإن سوزان أنطون Susan Antón (عالمة الحفريات من جامعة روتگرز Rutgers)؛ تؤكد أن الظروف البيئية التي عاشوا بها أثرت بصورة عميقة على شكلهم المورفولوجي العالم، وتركت فروقاً واضحةً للعيان، ويؤكد أغلب علماء الأنثروبولوجيا أن هذه الفروق مقبولة ومفهومة، وبينوا أنها تندرج في إطار ما أطلقوا عليه مسمى (اللدانة النمائية)، وبالتالي اقترحوا أن تشتت وطول العمر التطوري للأنواع قد يكون مرتبطاً باللدانة النمائية (النمط الظاهري) الشبيهة بما هو موجود عند أفراد الإنسان العاقل، واللدانة النمائية هي القدرة على تعديل النمو استجابةً للظروف البيئية، مما يؤدي إلى تباين في تشريح البالغين الذي لا يتم توجيهه وراثياً[24]، وهذه اللدانة توضح تنوع الهوموإركتوس المورفولوجي والتباين بين المجموعات الإقليمية من سلالة واحدة متطورة، ذات نطاق جغرافي كبير.[25]

لقد كانت درجات الحرارة أكثر العوامل البيئية التي أثرت في شكل أجسادهم وحجمه، إذ يسعى الجسد دائماً إلى التكيف مع الظروف المناخية المحيطة به، لاسيما أن درجات الحرارة كانت مختلفة ما بين أوراسيا وأفريقيا في العصر الحجري القديم الأدنى؛ العصر الذي عاش فيه أفراد الهوموإركتوس[26]. لقد عاش أفراد الهوموإركتوس في شرق إفريقيا قبل أن ينتشروا في قارات العالم القديم، ويبدو أنهم استطاعوا أن يتكيفوا مع درجات الحرارة المرتفعة هناك، فرغم أن حرارة الجو تصل في مناطق الساڤانا إلى الثلاثينات، إلا أن أجسادهم حافظت على حراتها بصورة طبيعية دون أن ترتفع. في الواقع يُعد التنظيم الحراري للجسم فائدة محتملة ناتجة عن الوقفة المنتصبة، فالأستاذ بيتر ويلر Peter Wheeler (من جامعة جون مورز John Moores في ليڤربول Liverpool بإنكلترا) كان قد سلم بأن التحرك بشكل منتصب؛ أتاح لأشباه البشر الأوائل تنظيماً

[24]((Anton, S. C., et. La., Op. Cit., 2016, pp.1,2.

[25]((Carotenuto, F., & Tsikaridze, N., & Rook, L., & Lordkipanidze, D., & Longo, L., & Condemi, S., et al., *Venturing out safely: The biogeography of Homo erectus dispersal out of Africa*., Journal of Human Evolution, 95, 1-12., 2016, p.5.

[26]((Anton, S. C., et. La., Op. Cit., 2016, p.2.

أفضل لحرارة أجسامهم، وذلك عبر تقليص مساحة التعرض السطحي لشمس إفريقيا المحرقة، أو للإشعاع المنعكس من الأرض في مناطق الساڤانا .[27]

لا شك أن للوقفة المنتصبة تحت أشعة الشمس فائدة، في البيئة غير المظللة الخالية من الأشجار كالمنطقة المدارية، وهي الحمل الحراري الذي تفرضه الشمس القوية على الجسم، فالتخلص من هذه الحرارة أمر مهم، والوقوف منتصباً يقلل سطح المنطقة الماصة للحرارة التي تتعرض للشمس، كما أنها تزيد من مساحة الجسم إلى الكتلة ما يتسبب في فقدان الحرارة بالإشعاع وبتبخير العرق بشكل أكبر، وكلما كان المرء أطول يمكن أن يستفيد من نسيم الهواء في خفض حرارة جسده[28]، إن هذه التكيفات تقلل من كمية الإجهاد الحراري المفرط؛ الذي يمكن أن يؤثر على عملية التمثيل الغذائي في الجسم، وخاصة الدماغ كونه المستهلك الأعظم للطاقة في الجسم.[29]

في الواقع لم تكن الوقفة المنتصبة وحدها تكيفاً مناخياً مهماً؛ فحتى الأطراف الطويلة عند الهوموإركتوس هي شكل مورفولوجي تكيفي؛ فبالمقارنة مع أطراف النياندرتال القصيرة، التي عدت نوعاً من التكيف مع مناخ المنطقة الباردة حيث عاشوا في أوروبا والشرق الأدنى (كون الأطراف القصيرة تقلل من خسارة حرارة الجسم)، إلا أن أطرافهم القصيرة قصرت خطواتهم. أما أفراد الهوموإركتوس الذين عاشوا في إفريقيا المشرقة وانتشروا منها، لم يكونوا بحاجة إلى هذا النمط من التكيف، بل إن أجسامهم الطويل النحيلة كانت بحاجة إلى أطراف طويلة. إن الأطراف الطويلة هي تكيف مع مناخ المنطقة الحار؛ الذي قُدّر متوسط درجات حرارته بـ 30,8 درجة. وقد أسهمت هذه الأطراف الطويلة عند أفراد الهوموإركتوس في زيادة نسبة سطح الجسم إلى حجمه، وإن هذا التناسب أسهم بالمساعدة في التخلص من حرارة الجسم الزائدة. ويبدو أن هذا التكيف مازال موجوداً

[27]((Leonard, W. R., *Food for thought, Dietary change was a driving force in human evolution*., Scientific American, Vol 287, N 6, December 2002, p.109.

[28]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*., Oxford University Press 2008, p.85.

[29]((Beyin, A., "*Human origins, dispersal and associated environments: An African perspective*". In Ethnology, Ethnography and Cultural Anthropology, [in Encyclopedia of Life Support Systems (EOLSS), UNESCO, Eolss Publishers, Paris, France 2015, p.12.

حتى يومنا هذا، ويمكن ملاحظته في أبناء شرق إفريقيا، كما هو الحال مع أفراد قبائل الدينكا Dinka في جنوب السودان. وليس من باب الصدفة أن يمتلك هؤلاء الأفراد، الذين يعيشون في واحدة من أكثر بقاع الأرض حرارة، أطرافاً طويلة بصورة مبالغ بها. ويبدو أننا اليوم نملك تنوعاً كبيراً في تناسب الأطراف بحكم أن أسلافنا من ذرية الإنسان العاقل، بعد أن هاجروا من إفريقيا الاستوائية سكنوا أصقاعاً أبرد، فتبدلت الضغوط الانتخابية (الاصطفائية) selection pressures الأمر الذي سمح بظهور تشكيلة من القامات البشرية.[30]

لقد بينت الدراسات التي أجراها بشكل مستقل كل من الأستاذ ليبرمان Lieberman وكريستوفر رَف Christopher Ruff (من جامعة جونز هوپكنز Johns Hopkins) أن الهوموإركتوس قد امتلك قبل نحو 1,9 مليون سنة التناسب الأساسي في أعضاء جسده؛ الذي مكّنه من المشي على قدمين اثنتين، والجري لمسافات طويلة أيضاً، بالإضافة إلى إن تفاصيل سطوح مفاصل الكعب والركبة وعظم الورك توضح أنهم كانوا بالفعل يبذلوا جهوداً كبيرة في هذين المجالين[31]، ربما كان الجري لمسافات طويلة أحد مكونات ذخيرة الحركة البشرية لأول مرة عند أفراد الهوموإركتوس؛ وقد تشمل التكيفات الجديدة للجري الحوض الأضيق، والحُقّ الكبير والعميق، وشفرات الحرقفة المنحنية بشكل سهمي، وزيادة استقرار الأربطة في مفاصل الحوض، وعضلات أقوى، مع هذه التغيرات المورفولوجية، انفصلت حركات الجذع والورك، مما سمح بمزيد من الحركة بينهما، واستقر الجذع بشكل أفضل، وانخفض إجهاد المفاصل، مما جعل الجري سلوكًا حيويًا للبقاء لدى الهوموإركتوس .[32]

كما تكيفت القدم لتقوم بمهمة الجري السريع والمفاجئ؛ إذ تدعم الأربطة والأوتار كعب القدم الرفاص، وهكذا كلما ضرب المرء قدمه على الأرض تُخزن الأوتار الطاقة ثم تحررها ليكون الجري فعالاً أكثر. كما كان حجم القدم عند الهوموإركتوس مطابقاً لحجم القدم عند الإنسان العاقل، إذ تشير أحد طبعات الأقدام لفرد من أفراد الهوموإركتوس في منطقة إليريت Ileret (كينيا) إلى

[30]() Jablonski, N, G., *The Naked Truth*, Recent findings lay bare the origins of human hairlessness-and hint that naked skin was a key factor in the emergence of other human traits, Scientific American, Vol 302, No 2, 2010, p.32.

[31]() Ibid, p.33.

[32]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., *The evolution of the human pelvis: changing adaptations to bipedalism, obstetrics and thermoregulation*., Rstb; Royal Society Publishing. org Phil. Trans. R. Soc. B 370: 20140063, 2015, p.7.

كتلة جسم صغيرة؛ ربما أن صحبها كان طفلاً، إذ يبلغ طولها (الذي يتم قياسه من نهاية الكعب إلى طرف أصبع الإبهام الأمامي) نحو 20.5سم، وهذا الطول (وفقا للبيانات التي جمعها أشتون Ashton وزملاؤه) يعادل تقريباً حجم قدم إنسان العاقل الذي يبلغ من العمر 9 سنوات[33]. أثناء المشي البشري يتم تركيز ثقل الجسم على الأرض في نمط تفصيلي يتركز فيه الثقل الأكبر تحت مقدمة القدم، في المنتصف، بينما يعمل الكعب كرافعة صلبة مع المشط لاسيما الأصبعين الأول والثاني في نهاية كل خطوة، إن هذه الآلية عند البشر تختلف عما عليه الحال عند الرئيسيات الأخرى، وقد تم الإقرار بهذه الخاصية دائماً بأنها علامة مميزة لوظيفة القدم البشرية. عموماً تظهر آثار أقدام الإنسان العاقل تدرجاً عاماً في الأصابع من الوسط إلى الجانبين، حيث يكون الإصبع الثاني أكثر طولاً حتى من الإبهام، إن الهدف من هذا الطول الزائد هو توزيع ثقل وزن الجسم. في الواقع تُظهر آثار طبعات أقدام إليريت نمطاً مختلفاً قليلاً عنا، لكنه لا يزال مشابهاً لنا بشكل عام، فرغم أنهم يفتقرون إلى التدرج الواضح من الوسط إلى الجانب، إلا أن طبعات أقدامهم تظهر بشكل جلي أن وزن الجسد تركز تحت مقدمة القدم، في المنتصف، من خلال ما يظهر في طبعات أقادمهم؛ حيث تكون مقدمة القدم، في المنتصف، الأعمق في الطبعة من باقي أطراف القدم[34]. كما إن الساقين الطويلتين وعظمها الكثيف جعلت من الهوموإركتوس مشاء، وربما عداء مسافات طويلة، فالساق الأطول تعني خطوة أكبر. وإن أكثر ما يلفت النظر حول السير على قدمين اثنتين؛ أنه أكثر اقتصاداً في الطاقة بشكل ملموس من التحرك الرباعي الأقدام، عند المدى المألوف لمعدلات المشي، كونه نمطاً من الحركة يفضي بشكل ملموس إلى تخفيض عدد الكالوريات Calories (السعرات الحرارية) المصروفة في الوصول إلى مصادر الغذاء التي ازداد تبعثرها في العصر الحجري القديم .[35]

لقد سمح غياب المعاطف الثقيلة النموذجية (الفراء) عند الهوموإركتوس بتراكم غدد عرقية إضافية أكثر مما كان ممكناً في السابق، وبالتالي عملت خاصية التعرق على التحكم بحرارة أجساد الهوموإركتوس وحافظت عليها بمعدلاتها الطبيعية دون أن ترتفع، إن خاصية التعرق هذه عملت بفضل الجهاز المركزي العصبي (CNS) وبالناقل العصبي الدوبامين Dopaminergic، إن

[33]((Hatala, K. G., et. la., Op. Cit., 2016, p.3.
[34]((Ibid, p.4.
[35]((Leonard, W. R., Op. Cit., 2002, pp.109, 110.

المعدلات المرتفعة من الإجهاد التبخري تتطلب نظاماً أكثر سرعة لإشارات الدوبامين إلى المنطقة العصبية ما تحت المهاد؛ لتنشيط خصائص التنظيم الحراري المعتمدة في الجهاز العصبي عند أفراد الهوموإركتوس[36]. في الواقع إن لدى معظم أنواع الثديّات مجموعة من الميزات المختلفة لتجنب ارتفاع درجة حرارة أجسادها: فالكلب مثلاً يلهث بفواصل زمنية قصيرة، والعديد من أنواع القطط تنشط أكثر خلال ساعات المساء الأبرد، ويمكن للكثير من الوعول أن تفرّغ الدم الذي ارتفعت حرارته في شرايينها إلى أوردة دموية صغيرة؛ سبق لهذه الأوردة أن تبردت من خلال تنفس الوعل عبر أنفه. أما بالنسبة للبشر فإن التعرق هو الاستراتيجية الأمثل للتخلص من حرارة الجسم الزائدة، فالتعرق يبرد الجسم من خلال السائل المائي الذي تطرحه الغدد العرقية عبر المسامات الجلدية، ويسهم تبخره من على سطح الجلد في خفض حرارة الجسم الزائدة بسحبها من الجلد. وتعمل آلية تبريد مجمل الجسد وفقاً لهذا المبدأ، وهي آلية فعالة جداً في منع ارتفاع درجة حرارة الجسم؛ فزيادتها تشكل خطراً على الدماغ وبقية أعضاء الجسم .[37]

إن التعرق خاصية إنسانية على خلاف الثديّات الأخرى؛ فغياب الفراء والجسم العاري سمح لأفراد الهوموإركتوس على تبديد حرارة الجسم الزائدة بسهولة من خلال التعرق، وهذا من شأنه أن يسهل الصيد وتتبع الفريسة لساعات في منتصف النهار دون أن يصاب الجسد بالإرهاق، وعند هذه النقطة يمكن أن تستنفد معظم أنواع الفرائس الأرضية بسهولة طاقتها إذا تمت مطاردتها لمسافة معقولة، لا بل حتى أن أكبر الحيوانات المفترسة تأوي إلى الظلال في ساعات الظهيرة وتتوقف عن الصيد. كل هذه الفوائد يمكن أن تكون قد عززت بقاء أشباه البشر في موطن الساڤانا المفتوح، حيث يتطلب الصيد وجمع الثمار قطع مسافات طويلة والقدرة على التحمل، وتدريجياً ربما تكون وضعية الوقوف على قدمين قد ترافقت مع سمات بشرية مهمة أخرى مثل الدماغ الكبير والتكنولوجيا.[38]

لقد كانت هيئة الهوموإركتوس عارية؛ دون شعرٍ يكسو جسده، وانعكس انخفاض أعداد الشعيرات التي تغطي أجسادهم وانتشار الغدد العرقية إيجاباً عليهم، إذ تضافر جنباً إلى جنب

[36](Dzhinenko, E., *The Cognitive Evolution of Homo erectus The Cognitive Evolution of Homo erectus*., The Undergraduate Research Journal at the University of Northern ColoradoLM, Volume 11, Number 1, July 2022, p.6.

[37]() Jablonski, N, G., Op. Cit., 2010, p.30.

[38]((Beyin, A., Op. Cit., 2015, p.12.

كجزء من آلية طرح حرارة أجسادهم الزائدة؛ فالأجساد الأقل شعراً لها قدرة أكبر على تبريد نفسها؛ عن طريق إفراز العرق ثم تبخيره خلال وقت الإجهاد العضلي الثقيل. وغالباً ما يستشهد علماء الأنثروبولوجيا بصبي توركانا في هذا المقام، فمما لا شك فيه أن فتى توركانا امتلك جسداً عارياً من الشعر، على الأقل شبيه بأجسادنا، إلا أن لون بشرته كان أسوداً، وهذا تكيف طبيعي ومقبول لتخفيف التأثيرات الضارة جداً لأشعة الشمس الاستوائية؛ فالبشرة السوداء تمتاز بوفرة صبغة الميلانين الداكنة فيها؛ والتي تمنع اختراق أشعة الشمس لها.[39]

استنادا إلى الدليل الأثري فإن الانتقال إلى الجلد العاري، وإلى نظام التعرق الذي أساسه غُدد عرق مائية، حصل فعلاً قبل نحو 1,9 مليون سنة خلت، وذلك ليزيل المرء الأحمال الحرارية الزائدة؛ التي رافقت الأسلوب الجديد لحياة أفراد الهوموإركتوس المفعم بالحيوية[40]. لما كان الجري –لاسيما لمسافات طويلة– يكلف الجسد معدلات طاقة كبيرة، وبالتالي ارتفاع في حرارة الجسد، وبما أنه من غير الممكن أن يلهث المرء أثناء الجري، من أجل الحفاظ على حرارة جسده، فمما لا شك فيه أن الجلد العاري أو قليل الشعر هو ميزة بديلة؛ أي أن الجلد العاري من الشعر هو نتيجة ضرورة تبريد الجسم؛ وإن هذه الضرورة انسجمت مع القدرة الفائقة على التعرق، حيث استطاع المرء أن يعوض عن اللهث في منع انهيار الجسد نتيجة الانهاك الحراري في الجو الحار، ويبدو إن الهوموإركتوس كان بحاجة إلى هذه الخاصة ليتمكن من الجري خلف طرائده صغير الحجم، في سهول الساڤانا الاستوائية في شرق إفريقيا، فلو كان لديه غطاء يشبه القرد من شعر الجسم، لما كان من الممكن أن يتعرق بكفاءة، والتعرق هو الوسيلة الأساسية التي تمنع ارتفاع درجات حرارة الجسد والدماغ[41].إن القدرة المطلقة على التحمل؛ والقدرة على الاستمرار بالحركة لساعات؛ هي إحدى الخصائص التي ميزت كل جنس مشى منتصباً كنوع بشري، وكصياد من نوع غير عادي.[42]

لكن علينا أن نكون معتدلين عند طرح أي نظرية علمية؛ فمع صحة كل ما تقدم نظرياً، فإن قدرة الجسد على التعرق هذه لها جانب سلبي أيضا؛ فهي تزيد من خطر الإصابة بالجفاف؛

[39]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*., Op. Cit., 2008, p.105.
[40]() Jablonski, N, G., Op. Cit., 2010, p.33.
[41]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.88.
[42]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*, Op. Cit., 2008, p.112.

بسبب طرح سوائل الجسم. وقد أثبت الأستاذ مارتن هورا Martin Hora من جامعة تشارلز Charles في براغ Prague وزملائه مؤخراً أن الهوموإركتوس كانوا قادرين على تتبع طرائدهم الصغيرة بصورة مستمرة لمدة خمس ساعات متصلةٍ تقريباً في الساڤانا رغم حرارة الجو، قبل أن يفقد 10% من كتلة جسمه. في الواقع إن هذا الكلام من الناحية البدنية خطير؛ لأن فقدان 10 % من كتلة الجسم بسبب الجفاف بشكل عام هو الحد الفاصل قبل حدوث انهيار بدني عام، وخطر جدي على سير العمليات الفيزيولوجية والمعرفية أو ربما الموت، فبعد هذه النقطة يصبح شُرب الماء صعباً، وتكون هناك حاجة إلى تقديم السوائل عن طريق الوريد لمعالجة الجفاف، وهو أمر لم يكن متوفراً عند الهوموإركتوس.[43]

ثالثاً: الوقفة المنتصبة والسير على قدمين عند أفراد الهوموإركتوس:

لقد دفع التبدل المناخي الثورة المورفولوجية إلى الأمام، فبينما ازدادت القارة الإفريقية جفافاً وتحولت الغابات إلى مروج، ما جعل مصادر الطعام موزعة بشكل متناثر هنا وهناك، وفي هذا السياق يمكن النظر إلى السير على قدمين؛ على أنها واحدة من الاستراتيجيات الأولى في الحصول على الغذاء عند الجنس البشري[44]، ومن المحتمل أن يكون المشي على قدمين قد ظهر بعده تكيفاً قابلاً للتطبيق استجابةً لتوسع موائل الأراضي العشبية مع تضاؤل الغابات، فالوقفة المنتصبة ساعدت أشباه البشر على يد حرة؛ هذه اليد كان بوسعها حمل الأسلحة والطعام والأطفال الرضع لمسافات أطول، وكذلك رمي الأسلحة نحو الفريسة المحتملة بدقة أكبر. وبمعنى أن الوقفة المنتصبة التي حررت اليد؛ سمحت باستخدام الأدوات؛ ما سهل الدفاع عن النفس ورعاية الأطفال والوصول إلى الأطعمة عالية الجودة، مثل اللحوم والموارد النباتية المخزنة تحت الأرض، كما ويُعتقد أن الوضع العمودي لجسد المرء قد حسّن المراقبة البصرية لدى أشباه البشر (القدرة على اكتشاف الحيوانات المفترسة أو الفرائس من بعيد)، والقدرة على التحمل خلال ساعات طويلة من الصيد والبحث عن الطعام .[45]

وبالنظر في العلاقة الجدلية والحساسة بين الوقفة المنتصبة واليد الحرة، بعدها علاقة ذات دلالات عميقة ونتائج مهمة، ومن السمات الفريدة في الجنس البشري، التي أتاحت لنا القيام

[43]() Rosinger, A, Y., *Breaking a Sweat*., Scientific American, July 2021, p.40.
[44]((Leonard, W. R., Op. Cit., 2002, p.110.
[45]((Beyin, A., Op. Cit., 2015, p.11.

بالكثير من النشاطات المفيدة والتعبير عن مقدرتنا العقلية، إذ تشير الأستاذة كاترين بولارد Katherine S. pollard (من جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو) أنه في سنة 2008م أظهر فريق من علماء ما قبل التاريخ في مختبر لورانس بيركلي الوطني Lawrence Berkeley National؛ أن الاختلافات المحددة في النسخة البشرية من ناحية الجينوم المرموز له بـ 2HAR عن النسخة الموجودة منه عند الرئيسيات من غير البشر، تسهم بتوجيه متوالية الدنا DNA هذه بتوجيه النشاط الجيني في الرسغ والإبهام أثناء النماء الجيني، في حين أن النسخة الجينية السَلفية في الرئيسيات الأخرى من غير البشر لا تستطيع ذلك، وهذا الاكتشاف مهم لأنه يشرح لنا التغيرات المورفولوجية في اليد البشرية الحرة، التي أتاحت لنا ولأشباه البشر الأوائل المهارة اللازمة لصناعة واستخدام الأدوات الحجرية التي تتطلب صناعتها جهود معقدة، ومثلما كانت اليد الحرة نتيجة برمجة جينومية أصيلة دعمت الوقفة المنتصبة، ربما أن الوقفة المنتصبة والسير على قدمين كذلك استجابة لبرمجيات جينومية أصيلة .[46]

سواء كانت الوقفة المنتصبة عند أفراد الهوموإركتوس تكيفاً مورفولوجياً نتاجاً عن تحدي معيشي واستجابة، أم أنها ناتجة عن برمجة جينومية أصيلة تميز بها أبناء جنسنا البشري، وكان لها تأثير عميق على البنية المورفولوجية، يبقى لها فائدة عظيمة في تميز جنسنا عن باقي الكائنات الأخرى فوق سطح كوكب الأرض، إذ تُعد الخاصية السرية المميزة للسلالة البشرية، فلا شيء إن لم يكن منتصباً على قدمين؛ يمكن نَعُده بشرياً[47]، ويؤكد الأستاذ بيتر فارب أن جنسنا (هومو) لم يكن وحده من سار على قدمين فقط في الحاضر والماضي؛ فالكنغر وبعض الطيور والسحالي والدببة والشمبانزي وكذلك بعض أنواع الديناصورات المنقرضة تسير على قدمين[48]، وحتى لو كان الشمبانزي، أو حتى البونوبو، يستطيع أحياناً التحرك على قدمين، فإن شكل عظم الفخذ – مثلاً– ليس له مورفولوجية بشرية: بل له مورفولوجية القرد العظيم؛ ولا يُظهر أي تعديل مرتبط بالمشي على قدمين بشكل دائم. في الواقع تختلف نسب تناسق عظام الجسم؛ إذ إن الطفل البشري

[46]() pollard, S, K., *What makes us Human? Comparisons of the genomes of humans and chimpanzees are revealing those rare stretches of DNA that are ours alone*., Scientific American., May 2009, p.47.

[47]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*, Op. Cit., 2008, p.69.

[48]() Farb, P., *Humankind*., First Edition, Jonathan Cape, London 1978.

منذ سن مبكرة جداً لديه بالفعل أطراف سفلية أطول من الأطراف العلوية، وعلى العكس من ذلك فإن طفل الشمبانزي لديه أطراف أمامية أطول من الأطراف الخلفية. ومن الضروري التمييز بين المشي البشري الحالي والدائم على قدمين، وبين المشي غير البشري على قدمين (كما هو مع الشمبانزي)؛ بناءً على خصائص مختلفة، أو حتى المشي البشري البدائي على قدمين (كما هو مع لوسي)، والذي يمثل نفس القيود العظمية عند المشي على الأرض على الرجلين الخلفيتين[49]. وعلى الرغم من أن أشباه البشر الأوائل كانوا على الأرجح يسيرون على قدمين، إلا أنه كيف ومتى ظهرت المشية الشبيهة بمشيتنا تماماً؟ هو موضوع مطروح لنقاشات متنوعة، فقد ظهرت تفسيرات متعارضة بشأن مدى تشابه مشية هؤلاء بالبشر الذين يسيرون على قدمين بمشيتنا. وبالمقارنة يُفترض على نطاق واسع أن الهيكل العظمي للهوموإركتوس الشبيه بهياكلنا العظمية يعكس حقيقة السير على قدمين بمشية شبيه بمشيتنا[50]، وقد ظل المشي على قدمين بكفاءة عالية هو السمة الرئيسية التي ميزت أشباه البشر عن القردة الأخرى لفترة طويلة.[51]

إن السير على قدمين قضية حساسة ومعقدة وتطلبت بنية مورفولوجية دقيقة في الهيكل العظمي، تتمثل في الانحناء السهمي، والأسطح الجدارية المنخفضة في الجمجمة، وشكل الحرشف الصدغي، والتوسع العرضي لقاعدة الجمجمة، والعمود الفقري وتقوساته، وشكل القفص الصدري[52]، وسيقان طويلة تميل نحو الركبة من مفاصل الورك، وبهذه الطريقة ينتقل وزن الجسم مع كل خطوة واسعة مباشرةً إلى الأمام؛ عندما تتحرك الأقدام وتقترب الواحدة من الأخرى، دون الإرباك الذي تسببه الحركة الجانبية، وتعد الركبة جزءاً مهما من هذه الآلية؛ وهو السطح الذي يتوجه بزاوية قائمة إلى جذع عظم القصبة بدلاً من أن يميل جانباً كما في حالة القرود .[53]

كما إن الحوض يحتوي على تجويف ضخم من أجل رأس عظمة الفخذ هو (التجويف الحُقّي)، والعظمة التي تربط التجويف الحُقّي بالعرف الحرقفي أكثر سماكة، تتفق هاتان السمتان

[49]((Senut, B., "*Bipédie et climat*". Comptes Rendus Palevol 5; 2006, p.90.
[50]((Hatala, K. G., et. la., Op. Cit., 2016, p.1.
[51]((Beyin, A., Op. Cit., 2015, p.12.
[52]() Meyer, M., Functional biology of the homo erectus axial skeleton from Dmanisi, Georgia., Presented to the Faculties of the University of Pennsylvania in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy 2005, p.242.
[53]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*, Op. Cit., 2008, p.76.

مع اعتياد الوقفة المنتصبة واتساع مدى الخطوة بالسير على قدمين عند أفراد الهوموإركتوس. هذا بالإضافة إلى مواقع التصاق الأربطة التي تربط عظم الإسكيّ Ischium بالعجز، وأوتار الركبة والعضلات المقربة، فالجدير بالذكر أن عظم الإسكيّ لدى القردة طويل، وأن الدرنة الإسكيّة؛ حيث تلتقي أوتار الركبة والرباط العجزي الدرني، تتجه للأسفل، بينما في البشر تكون الدرنة الإسكيّة أقصر، ولأن فخذ الإنسان طويل نسبياً، فإن هذا يعني أن موقع إدخال أوتار الركبة يكون أبعد عن نقطة الانطلاق. بالإضافة إلى ذلك فإن الدرنة الإسكيّة عندنا أكثر متانة من القردة، وتميل بزاوية بحيث يكون جزء منها متجهاً للأعلى؛ ولا يُحسّن موضع وشكل درنة الإسكيّة لدى البشر من قوة الرفع لأوتار الركبة فحسب، بل يعكس أيضاً زيادة التوتر الناتج عن الرباط العجزي الدرني. يقع المفصل العجزي السفلي الخفيف أمام المفصل العجزي الحرقفي لدى البشر، ولذلك يميل وزن الجسم إلى تدوير العجز للأمام، مما يؤدي إلى ضغط نتوء العجز ورفع قمته (الطرف السفلي) مع العُصعُص (نهاية العمود الفقري). يقاوم الرباط العجزي الدرني الذي يمتد من العجز والعُصعُص إلى الدرنة الإسكيّة، الدوران العجزي ويتعرض للتوتر حسب وزن الجسم أثناء الوقوف والمشي على قدمين .[54]

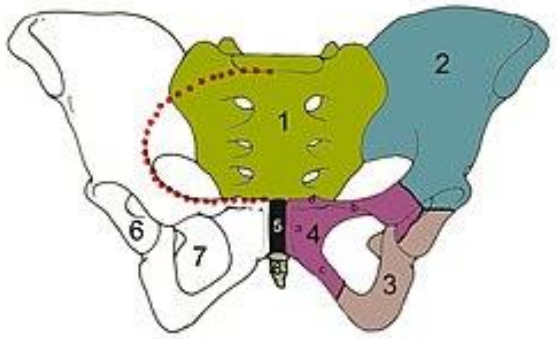

عظم الحوض: 1–عظم العجز. 2–الحرقفة. 3–عظم الإسكيّ. 4–عظم العانة. 5–الارتفاق العاني. 6–الحُق. 7–الثقبة السداسية. 8– العصعص.

[54]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.3.

لقد امتاز أفراد الهوموإركتوس بالوقفة المنتصبة وبالسير على قدمين اثنتين بحركة ميكانيكية دقيقة وعالية، كما تجدر الإشارة إلى أن الحفاظ على التوازن في وضعية انتصاب المرء؛ هو ناتج بشكل رئيسي عن التقوسات أو الانحناءات الثلاثة المميزة الموجودة في العمود الفقري، وهي أولا: تحدب المنطقة الصدرية من الخلف (حداب)، ثانيا تقعر المنطقة القطنية، ثالثا تقعر منطقة العجز من الخلف (قَعِس)، يعد تحدب فقرات الصدر أساسياً، في حين يعد تقعر المنطقة القطنية وتقعر العجز ثانوياً. ففي الإنسان العاقل نلاحظ أن القفص الصدر حتى يتوازن فوق قدمين اثنتين لابد من تقوسات العمود الفقري، وشكل الصدر (على هيئة أسطوانية) واتجاه الأضلاع، وشكل عظام الورك (المرتب بطريقة تعزز سرعة الحركة المتاحة ومادامها، لاسيما عندما تمتد الساق بشكل مستقيم)، وهذا كله نلاحظه في الهياكل العظمية عند أفراد الهوموإركتوس؛ إذ تكاد تنطبق عليهم هذه المورفولوجيا تماماً. كما إن للعمود الفقري دور كبير في انتصاب الرأس فوق الكتفين، فالتشريح الوظيفي للعمود العنقي (الفقرات العنقية وعددها سبع فقرات) بيَّنَ أن الحفاظ على وضع الرأس مستقيماً؛ مسؤولية أساسية للهيكل العضلي العنقي. والاختلافات الوضعية تكمن وراء الاختلافات الرئيسية في العمود العنقي بين البشر والقردة، حيث أن الوضعية المنتصبة للجسد عند البشر؛ أعادت وضع مركز ثقل الرأس فوق العمود الفقري مباشرة. وبالمقارنة يجب على القردة أن تمارس قوة عضلية أكبر بكثير لإبقاء الرأس في وضع مستقيم، وينعكس هذا التناقض في شكل العمود العنقي عبر ميزات مثل النتوء الشوكي القصير في الفقرات، وغالباً ما يكون مشطوراً عند النهاية.[55]

أما الخلاف الذي يمكن ملاحظته في العمود الفقري؛ هو أن جميع أفراد الإنسان العاقل يمتلكون خمس فقرات في المنطقة الدنيا من العمود الفقري (الفقرات القطنية)، بينما يمتلك أفراد الهوموإركتوس ست فقرات بدلاً من خمسة، وربما أن وجود هذه الفقرة لم يكن عن عبث، بل إن وجودها ساهم في تطور التقوسات الشوكية التي زادت في انتصاب الظهر، وبالتالي التحكم بالمشية على قدمين اثنتين. مما يعني أن مشية الهوموإركتوس لم تكن تختلف بتاتاً عن مشيتنا نحن أبناء الإنسان العاقل، وقد أكدت اكتشافات جورجيا في موقع دمانيسي Dmanisi؛ العينة (2672D)، أن الفقرة القطنية الثانية عند الإنسان العاقل والهوموإركتوس تختلف عما هو موجود عند القردة الموجودة على قيد الحياة، فالفقرة القطنية الثانية عند الهوموإركتوس تشبه إلى حد كبير الفقرة القطنية

[55]() Meyer, M., Op. Cit., 2005, p.242.

الثانية عندنا، حيث تشترك في خصائص تختلف عموماً عن القردة العليا، مثل قناة فقرية كبيرة نسبياً مقارنة بالقناة الفقرية الصدرية، وعنيقات طويلة، وشقوق فقرية واسعة، وناتئات مفصلية سفلية ممدودة، وتدويد أمامي منخفض[56]. ويؤكد الأستاذ بيتر فارب أن أي خلل بسيط ناتج عن المرض أو الشيخوخة، سيحرمنا من الوقفة المنتصبة، وسيحرمنا المشي على قدمينا، ورغم ذلك أدت الوقفة المنتصبة إلى إضعاف بعض مناحي الجسم التشريحية، فالعمود الفقري يتحمل وزن الجسم، وخاصة المنطقة السفلى من الجذع، أي منطقة الفقرات القطنية وفقرات العجز، حيث يلتقي العمود الفقري مع الحوض دون اتصال مباشر، ويؤدي الضغط المستمر على هذه المنطقة إلى ظهور آلام دائمة وربما تشوهات.[57]

[56]() Ibid, p.183.
[57]() Farb, P., Op. Cit., 1978.

تمثل الهياكل العظمية الثلاثة الاختلافات في مورفولوجيا الهياكل العظمية. الأول من اليسار وهو الهوموإركتوس. وفي الوسط النوع الأقدم والأصغر حجما وقد أصبح مشهورا بفضل اكتشاف انثى «لوسي». وإلى اليمين هيكل إنسان عاقل يمثل سلالاتنا المعاصرة.

وبما أن العمود الفقري عند فتى توركانا هو الأكثر كمالاً فإن دراسته مفيدة في هذا الباب؛ وإن نظرة عامة عليه تظهر أنه أصغر نسبياً من العمود الفقري عند الإنسان العاقل، وترافق ذلك مع قناة لبية أصغر للنخاع الشوكي، وبالتالي سيؤثر ذلك على عمل الأعصاب، نظراً لأن أجسام الخلايا في النخاع الشوكي (المادة الرمادية) تقع بالقرب من المنطقة الوظيفية التي تعصبها، وإن الثقبة الفقرية الصدرية ترتبط بالعضلات الضلعية والبطنية التي تساعد في التنفس، ما جعلها عند الهوموإركتوس تحد قدرته على تنظيم الهواء الذي يمر في الرئتين إلى الفم، أدت هذه الملاحظة إلى استنتاج مفاده أن فتى توركانا كان يفتقر إلى درجات حديثة من التحكم العصبي في حركات التنفس، وعلى هذا النحو كان يفتقر إلى التحكم الدقيق في العضلات المشاركة في إنتاج الكلام واللغة والقدرة على الخطاب. وبناءً على هذا الاستنتاج قيل إن فتى تركانا هو عاجزٌ عن الكلام، مثل الرئيسيات غير البشرية ذات الحبال الشوكية الصغيرة نسبياً، إذ لم يكن قادراً على التحكم في كمية الهواء التي تمر من الرئتين عبر المسار التنفسي إلى البلعوم وتجويف الفم. إن الافتراض القائل بأن الهوموإركتوس بعده تصنيفاً لم يطور بعد القدرة العصبية خلف القحف على النُطق المعقد؛ قد تم قبوله على نطاق واسع ونشره في الأدبيات العلمية والشعبية[58]، لكن من المرجح أن ضيق القناة الفقرية هذا عند فتى توركانا كان باثولوجيا، فالسمات غير المعتادة للعمود الفقري عنده تجعل بعض الباحثين يظنون أنه كان يعاني من مرض أو تشوه مثل انحناء العمود الفقري، لكن هذا غير مؤكد أيضاً[59]، ومهما يكن من أمر فإن تاترسال يؤكد لنا أن فتى توركانا بدل كثيراً من مفاهيمنا حول الوقفة المنتصبة، التي كنا نظن أنها استغرقت وقتاً طويلاً حتى اكتملت أطرها بالمعنى العلمي للكلمة، بينما هي أمر اكتسبه أشباه البشر في حدث قصير الأمد، ربما بسبب

[58]() Meyer, M., Op. Cit., 2005, p.332.
[59]((Stefoff, R., Op. Cit., 2010, p.88.

تعديل بسيط نسبياً في إحدى الجينات التنظيمية التي كان لها تأثير متعاقب على البنية المورفولوجية في كافة أنحاء الجسم.[60]

رابعاً: عظام الأطراف:

لقد امتلك أفراد الهوموإركتوس كامل ما نمتلك من قدرات على المشي والركض؛ فعظام الأطراف (الساقين والذراعين) من حيث الشكل والأبعاد النسبية هي نفسها تقريباً عند الإنسان العاقل؛ حتى أن عظم الفخذ عندهم يشبه عظم الفخذ عندنا من حيث الشكل، وإن كانت الأشعة السينية قد أظهرت أنه أعلى كثافة عظمية عندهم مما هو لدينا لدرجة الضعف؛ والتجويف النخاعي أصغر، وعظام الفخذ والساقين عندهم أكثر طولا مما هو عندنا؛ وهو تناسب طبيعي مع متوسط أطوالهم[61]. عموما يعد عظم الفخذ الأيسر الذي عثر عليه الطبيب الهولندي أوجين دوبوا Eugène Dubois في حوض نهر سولو Solo في مقاطعة ترينيل Trinil في وسط جزيرة جاوا، مثلا نموذجياً لعظم الفخذ عند الهوموإركتوس؛ من حيث الطول والكثافة العظمية[62]. وتجدر الإشارة إلى أن عظام الفخذ عند أفراد الهوموإركتوس تتشابه فيما بينها في الطول؛ كما هو الحال بالنسبة لطول فخذ ترينيل (جاوا) وتشوكوديان (الصين) وكوبي فورا (كينيا)[63]. كما يعد عظم الساق مهما (لاسيما الظنبوب – أكبر عظمي الساق) لأنه يحمل ثقل الجسد، وبالتالي لابد أن يحمل فروقات مورفولوجية صارخة بين من يسيرون على قدمين ومن يسيرون على أربعة، كما تسمح السيقان الطويلة بالتعاون مع الكاحل والركبة بالانتقال لمسافات بعيدة بكفاءة عالية، وربما أن ذلك نتج عن تشفير جيني ساعدهم للسير الدائم بحثاً عن طعامهم، فهذه السمة بالتأكيد ستسمح لهم بالجري وراء الحيوانات الصغيرة كالأرانب والقنافذ وغيرها، وربما المتوسطة أيضاً في سهول الساڤانا الاستوائية في شرق إفريقيا.

---

[60]((Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*, Op. Cit., 2008, p.104

[61]() Rukang, W., & Lanpo, J., *China; in the period of Homo habilis and Homo erectus*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization 1994, p.271.

[62]((Bartstra, Gert-Jan., *Indonesia; in the period of Homo habilis and Homo eractus*., Op. Cit., 1994, p.281.

[63]((Anton, S. C., et. La., Op. Cit., 2016, p.13.

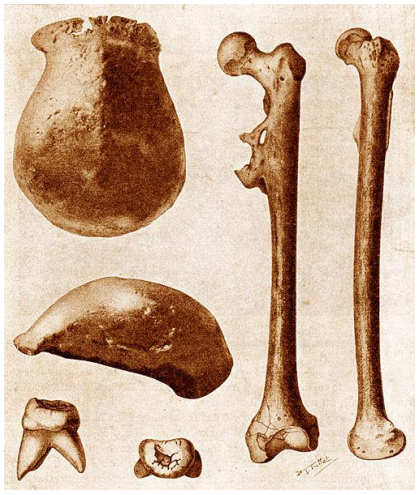

مكتشفات يوجين دوبوا ويظهر عظم فخذ الهوموإركتوس

لقد لعبت المقارنات بين حجم عظام الأطراف السفلية والعلوية دوراً أساسياً في محاولات إعادة بناء أنماط الحركة، ورغم أن هذه التحليلات اقتصرت على مقارنات الأبعاد الخارجية لعظام الأطراف (الطول، ومحيط العظم، وعرضه)، إلا أنها تُقدم رؤية قيّمة حول سلوك الحركة، وعندما تم إدراج الأبعاد الداخلية للعظام اتضحت الصورة بشكل أعمق، لا سيما بعد دراسة تحليل نسب قوة العظام، قد تكون مقارنات قوة العظام مفيدة بشكل خاص في اختبار فرضيات الحركة، نظراً لوجود أدلة على أن التغيرات في الحركة تؤثر بشكل مباشر على القوة النسبية لعظام الأطراف، إن نسب قوة عظام الأطراف السفلية إلى العلوية تميز جنسنا (هومو) بوضوح عن الرئيسيات الأخرى الشبيهة بنا. تُعد بقايا عظام الأطراف المحفوظة جيداً، نادرة للغاية في السجل الأحفوري لأشباه البشر الأوائل. من بين الأحافير المنسوبة إلى الهوموإركتوس العينة الأكثر اكتمالًا فتى توركانا، وقد عُدت نسب طول الأطراف عنده مشابه لما هو عندنا، وبالتالي فإن السلوك الحركي لفتى توركانا مشابهة بشكل أساسي للسلوك الحركي عند البشر المعاصرين، كما إن معظم نسب عرض عظام الأطراف العلوية والسفلية لفتى توركانا تقع بالقرب من متوسط عينة الإنسان العاقل البالغ، إذ إن نسبة حجم عمود العضد البعيد لحجم منتصف عمود الفخذ؛ تقع في النطاق العلوي للتباين البشري الحديث. هناك عينة أخرى للهوموإركتوس تحتوي على أجزاء من الأطراف العلوية والسفلية محفوظة جيداً (وإن كانت مصابة بأمراض جزئية)، هي العينة التي حصلت على الرمز العلمي

KNM–ER 1808، لبالغ يعود أرخ بنحو 1.69 مليون سنة. بناءً على أجزاء الحوض المحفوظة، عدّها واصفوها الأصليون ليكي ووكر، أنثى، على الرغم من أن هذا الأمر محل خلاف. معظم أسطح عظامها الطويلة مغطاة بسمك متفاوت من عظم سمحاقي خشن، ناتج عن بعض الأمراض، ربما فرط فيتامين أ، ورغم ذلك يُمكن تمييز الرواسب المرضية والسطوح تحت السمحاقية الأصلية بوضوح في المقاطع المكسورة في عظام الحوض وقد أتاحت هذه الخاصية صنع قالب مُصحّح لعظم الفخذ الأيمن السليم إلى حد كبير، والذي استُخدم سابقاً لاستخلاص المقاطع العرضية لهذه العظمة. لقد تبين أن الرواسب السمحاقية على عظم العضد أرق بكثير (١–٢ملم) من تلك الموجودة على عظم الفخذ، كما أنها واضحة للعيان في المقاطع المكسورة، مما سمح بتصحيح محيطها السمحاقي، وبين أن نسب قوة العظام؛ وبالتالي السلوك الحركي عند أفراد الهوموإركتوس، لا يمكن تمييزه عما هو موجود لدى البشر المعاصرين.[64]

خامسا: عظم الحوض:

يُعدّ الحوض البشري بنيةً بارزةً تلعبُ دوراً محورياً في العديد من العمليات البيولوجية الحيوية، وأبرزها الوقفة المنتصبة والحركة على قدمين، وتنظيم درجة حرارة الجسم، والولادة؛ كلٌّ من هذه العمليات الثلاث ضروريٌّ للبقاء والنجاح الإنجابي، لدرجة أن الحوض يخضع لضغطٍ قويٍّ من الانتخاب الطبيعي. يؤثر تشريح الحوض على كل جنس بشري مشى منتصباً من خلال توفيره للطاقة أثناء المشي أو الجري هذا ناهيك عن متانته وقدرته على التحمل وشكله الذي يعزز أذرع العضلات. أما تأثيره على تنظيم درجة حرارة الجسم فيتجلى ذلك بعرض وعمق الحوض؛ الذي يلعب دوراً حاسماً في تحديد نسب الجسم الكلية ونسبة مساحة سطح الجسم إلى كتلته، مما يؤثر على فقدان الحرارة عبر سطح الجسم. والأهم من ذلك من وجهة نظر انتقائية، يجب أن يسمح شكل الحوض بولادة طفل سليم دون الإضرار بالأم. ولا تتحقق هذه الأهداف جميعها من خلال نفس مورفولوجيا الحوض، ومع ذلك يظهر جليا في مورفولوجيا حوضنا أنه استطاع تلبية جميع تلك المتطلبات الثلاث مجتمعة .[65]

[64]((Ruff, Ch., *Femoral/humeral strength in early African Homo erectus*., Journal of Human Evolution, March 2008, pp.383-390.

[65]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.1.

يُعرّف عظم الحوض بأنه عظم كبير ومسطح وغير مُنتظم ويتكون من ثلاثة عظام مندمجة مع بعضها وهي: (الحرقفي والورك والعانة)، وفي نقطة التقاء هذه العظام هناك انبعاج نصف كروي يسمى التجويف الحُقي؛ وهو محل التقاء الحوض برأس عظم الفخذ. وإن شكل الحوض أو الورك عند أفراد الهوموإركتوس هو شبيه بشكل الحوض عند الإنسان العاقل، إذ يأخذ شكل الصحن، وهذا الشكل من الحوض يدعم الوقفة المنتصبة والسير على قدمين، من خلال توزيع الوزن عليهما معاً[66]، إذ يؤثر النصف العلوي من الحوض؛ من خلال التغيرات في ارتفاع وموضع شفرات الحرقفة (أجنحة الحرقفة) على قوة العضلات التي تمسك أو تمد مفصل الورك، ونطاق الحركة في العمود الفقري القطني، وارتفاع مركز الكتلة، وكل ذلك يؤثر على القدرة على موازنة الجسم على الساقين أثناء المشي على قدمين. بالإضافة إلى ذلك، يؤثر موضع شفرات الحرقفة على عرض الجذع وبالتالي يؤثر على تنظيم الحرارة .[67]

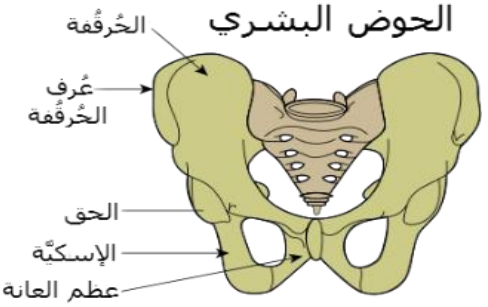

إن الحوض والقفص الصدري عند أفراد الهوموإركتوس هو أضيق مما هو عند أفراد الإنسان العاقل، فقد أدى الحوض الضيق إلى زيادة كفاءة العضلات التي تشغل الساقين في حركة القدمين، وكان من شأنه أن يجبر الجزء السفلي من القفص الصدري على التضييق بشكل مماثل، وللحفاظ على حجم الصدر ووظيفة الرئة كان من الضروري أن يقوم بذلك الجزء العلوي من القفص الصدري؛ فيتسع ليأخذ شكل البرميل[68]. في الواقع إن الأهداف الميكانيكية للمشي على قدمين هي: المشي بخطوات طويلة، بكفاءة ميكانيكية عالية، مع عدم السقوط. وبالتالي تُعتبر القدرة على موازنة الجزء العلوي من الجسم على أطراف طويلة ممتدة ضغطاً مركزياً لتشريح الحوض لدى

[66]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.88.
[67]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.2.
[68]() Klein, R, G., Op. Cit., 2005, p.88.

البشر. وتجدر الإشارة إلى أن الانحناء في أسفل الظهر (القعس القطني) يساعد على موازنة الجزء العلوي من الجسم فوق الحوض. في النصف العلوي من الحوض، يختلف حجم وشكل واتجاه شفرات الحرقفة بين القردة والبشر بطريقة تعكس التزامنا بالمشي على قدمين، شفرات الحرقفة لدينا أقصر من شفرات القِرَدة، مما يُخفِّض مركز ثقلنا ويجنِّب انحشار الفقرات القطنية بها، ويسمح لنا بالانحناء القطني كذلك. كما إن شفرات الحرقفة لدينا مُعاد توجيهها مقارنةً بالرئيسيات غير البشرية؛ شفرات الحرقفة في الرئيسيات غير البشرية طويلة، وذات صفائح مسطحة، ومُوجَّهة في المستوى الإكليلي، مما يسمح لعضلات الألوية، التي تنشأ من السطح الخارجي لشفرة الحرقفة وتستقر على عظم الفخذ القريب، بالامتداد للخلف فوق الورك وتمديد (سحب) الفخذ. أما في البشر فعلى النقيض من ذلك، إذ تنحني شفرات الحرقفة حول جانب الجسم (مواجهةً جانبياً) وتتسع للخارج، مما يُنتج الشكل التجويفيّ المميز لحوض الإنسان، ويسمح لعضلات الألوية –وخاصةً الألوية الصغرى– بتمدد العضلة المتوسطة لتعبر جانبيًا فوق الورك، مما يجعلها عضلات خاطفة بدلًا من عضلات باسطة، مما يسمح لها بلعب دور موازن الحوض في المشي ثنائي القدمين. أثناء المشي ثنائي القدمين، عندما يكون الجسم مدعومًا بساق واحدة، يميل الحوض إلى الميل نحو الجانب غير المحمول. وعندما تمشي القردة ثنائي القدمين، فإنها تعوّض ذلك بإمالة جذعها نحو الجانب المدعوم أو تمد أذرعها، لكن مثل هذه التحولات في الوزن من جانب إلى آخر مكلفة للطاقة، بينما عند البشر تكون عضلات الألوية هي الجانب الداعم القادرة على موازنة الجذع بكفاءة أكبر عن طريق سحب الجانب غير المدعوم من الحوض.[69]

لكن يمكن ملاحظة اختلاف مهم بيننا وبين أفراد الهوموإركتوس؛ فالحوض عندهم هو أصغر من الحوض عند أفراد الإنسان العاقل، الذين يمتلكون أحواض ذات قنوات ولادة أكبر تنتج عن زيادة في القطر السهمي والعرضي المطلق لمدخل ومخرج الحوض، ودوران العانة الأمامي والخلفي العلوي، والانخفاض النسبي في طول فرع العانة العلوي، وإعادة توجيه سهمي أكثر، وتوهج جانبي أقل للشفرات الحرقفية، وأعمدة حرقفية أكثر قوة في الوضع الخلفي، وقوة أكبر للعظام الحرقفية .[70]عموما تؤثر مورفولوجيا النصف السفلي من الحوض (العجز، وعظم الإسكيّ،

[69]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, pp.2, 3.

[70]((Churchill, S, E., & Vansickle, C., *Pelvic Morphology in Homo erectus and Early Homo*., The anatomical record 300, 2017, p.955.

والعانة) على الأقطار الأمامية الخلفية والعرضية لقناة الولادة birth Canal، ولما كان شكل النصف السفلي من الحوض (إلى جانب الأنسجة الرخوة، بما في ذلك عضلات قاع الحوض) يُحدد شكل قناة الولادة، ولما كان عظم العجز البشري يتميز بتكوين جدار عظمي خلفي/علوي لقناة الولادة، كانت النتيجة مدخل حوضي أوسع من الناحية الأنسية الوحشية منه من الناحية الأمامية المسندية (أي أن القطر المستعرض طويل نسبياً بالنسبة للوصلة التشريحية بين عظم العانة والعظم العجزي). وتعويضاً عن ذلك تتوسع قناة الولادة البشرية الحديثة عند مستوياتها السفلية لدى النساء، ويتحقق هذا التوسع من خلال الدوران الأمامي والانحناء السهمي للعجز، إلى جانب التوسع الكلي للحوض من الأمام إلى الخلف، والذي يُعزى في الغالب إلى إطالة فروع العانة، وتصاحب هذه التغييرات تقصير وتوسع عظم الإسكيّة، مما يؤدي إلى زاوية تحت العانة أوسع ومسافة أكبر بين الأشواك الإسكيّة. وعند النظر إليها كقناة ذات مدخل علوي ومخرج سفلي، يتضح تغير شكل قناة الولادة البشرية: فعلى الرغم من وجود تباين، إلا أن حوض الأنثى البشرية يكون عريضاً بشكل عام من الناحية الأنسية الوحشية عند مدخله، بينما يكون المستوى الأوسط والمخرج أوسع من الناحية الأمامية الخلفية .[71]

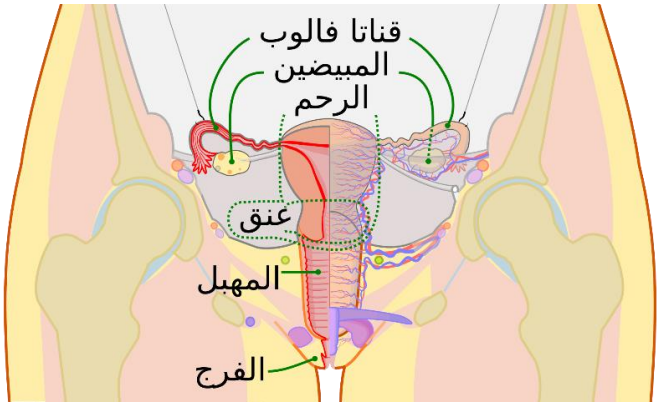

قناة الولادة

إن هذه الميزات الإيجابية انعكست إيجاباً على ولادات أفراد الإنسان العاقل، لكن غيابها بالمقابل عند أفراد الهوموإركتوس سينعكس على حجم رأس الجنين عندهم؛ إذ من المفترض أن

[71]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, pp.3, 4.

تكون جمجمة جنينهم أصغر حجماً حتى يتسنى له المرور من قناة الولادة، وبالتالي سينمو الدماغ بصورة أكبر عند هذا الجنين بعد الولادة، فدراسة الحوض عند الهوموإركتوس تبين أن شكله كان مزيجاً فريداً من السمات البدائية، أي كما هو موجود في معظم الأسترالوبيثك Australopithecus، مثل الشفرات الحرقفية المتوهجة جانبياً، والسمات المشتقة، وكما هو موضح في البشر الأحياء؛ مثل الإنحناء السيني الأكثر وضوحاً للشفرة الحرقفية، والثلم الحدبي الحقي الضيق، والميزات الفريدة مثل الدعامة الحرقفية الواضحة والتوجه الجانبي للحدبة الإسكيّة .[72]

قبل النظر في دور الحوض في الحركة والتوليد وتنظيم الحرارة؛ وكيف أثرت هذه الضغوط المختلفة على تشريح الحوض، يجب إدراك أن التغيرات في تشريح الحوض بمرور الوقت في سلالتنا البشرية تعكس تغيرات في الحركة والموئل والمناخ وحجم الدماغ وسلوك البقاء (أنماط السلوك المتعلقة بالحصول على الغذاء)[73]، وإن المتطلبات الميكانيكية المتغيرة على الحوض المتعلقة بحجم الجسم الأكبر، أو سلوك النطاق الأوسع، أو زيادة تكرار الجري، أو تغيير الفاعلية الحركية؛ والتغيرات المرتبطة بالحجم في شكل الجسم اللازمة للحفاظ على كفاءة التنظيم الحراري؛ أو مزيج من هذه العوامل؛ هي بسبب طبيعة الولادة في كل جنس بشري مشى منتصباً، إذ يُعتقد منذ فترة طويلة أن هناك علاقة بين حجم الدماغ الكبير وشكل عظم الحوض، على الرغم من أنه من غير الواضح حالياً متى بدأت هذه العلاقة الجدلية، أي متى بدأ نمو حجم الدماغ في كل جنس بشري مشى منتصباً في التأثير على شكل الحوض؛ أو بدلاً من ذلك لنقل عندما استلزمت القيود التوليدية التي يفرضها الحوض على حجم الدماغ في كل جنس بشري مشى منتصبا .[74]

لقد تم تقدير أبعاد قناة الولادة الأنثوية عند نساء الهوموإركتوس بناءً على الهيكل العظمي لفتى توركانا، ومن خلال إعادة بناء حوض الفتى من شظاياه، استنبط كريستوفر رَف وآلان ووكر كيف كان يمكن أن يبدو الصبي فيما لو وصل إلى مرحلة البلوغ؛ كان من الواضح أن فتى توركانا لم يكن قادراً على أن يَلِد أبداً، وباستعمال الفروق التي يمكن التنبؤ بها بين أحواض الذكور والإناث لدى أنواع من فصيلة الإنسان الأكثر حداثة، أمكنهم أيضا استنباط كيف كانت تبدو أنثى تلك الأنواع، واستطاعوا تخمين شكل قناة الولادة، التي ستظل صغيرة جداً، وقد تبين أن شكلها كان

[72](Churchill, S, E., & Vansickle, C., Op. Cit., 2017, p.955.
[73](Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.1.
[74](Churchill, S, E., & Vansickle, C., Op. Cit., 2017, p.955.

بيضوياً مسطحاً مماثلاً لأحواض الأسترالوبيثك، وستتسبب زيادة حجم جمجمة المولود في اضطراب الولادة، واستنادا إلى إعادة البناء هذه، حدد الباحثون أن نساء الهوموإركتوس الذين يُنسب لهم فتى توركانا ربما امتلكن آلية للولادة تشبه تلك الموجودة لدى الأسترالوبيثك[75]، وأن نساء الهوموإركتوس يفتقرن إلى التعديلات التوليدية الموجودة في الحوض عند نساء الإنسان العاقل، وبالتالي فإن قناة الولادة الصغيرة الخاصة بنساء الهوموإركتوس ستحد من حجم دماغ الوليد؛ بحد أقصى قدره 230 ملم. وهذا بدوره سيؤدي إلى ولادة دماغ الطفل فيها غير مكتمل من ناحية النمو، وبالتالي لابد أن الدماغ شهدت نمواً سريعاً بعد الولادة، وهو ما يعرف باسم "الكفاءة الثانوية"، الأمر الذي يتطلب درجة عالية من الرعاية الأبوية، شبيهة بما هو موجود عند الإنسان العاقل في استثمار رعاية الأم وسلوكيات تربية الأطفال .[76]

تشير "الكفاءة الثانوية" إلى حقيقة أن أطفال الإنسان العاقل حديثي الولادة لديهم أدمغة صغيرة لا تزيد في حجمها عن 25% فقط من حجم دماغ الشخص البالغ، لكنها تتطور بسرعة في السنة الأولى من حياتهم، بينما يصبح معدل نمو دماغ جميع حديثي الولادة من أبناء الرئيسيات الأخرى أبطأ بكثير عند الولادة. إن إسناد "الكفاءة الثانوية" على أساس حوض الذكر الحدث (فتى توركانا) هو أمر مثير للجدل. ولك أن تتخيل أن علماء ما قبل التاريخ بعيدون كل البعد عن الاتفاق فيما بينهم على هذه النقطة. ولكن إذا كان السكان الذين ينحدر منهم فتى توركانا غير متجانسين، وكان والداه غير مستعدين لتقديم درجة عالية من الرعاية، فسيكون لذلك آثار على نمو الدماغ والإدراك والتعلم. تشير السمات التشريحية الأخرى إلى أن نمط حياة فتى توركانا لم يكن حديثاً تماماً، ويشير تسلسل بزوغ أسنانه ونضج عظامه الطويلة؛ إلى أنه ربما لم يمر بطفرة دراماتيكية في النمو في مرحلة المراهقة، في بعض النواحي على الأقل سيكون فتى توركانا أكثر نضجاً في سن الحادية عشرة من صبيان الإنسان العاقل.[77]

---

[75]((Rosenberg, R, K., & Trevathan, W, R., *The Evolution of Human Birth*., Scientific American, December 2001, p.81.

[76]((Simpson, S. W., & Jay Quade, & Naomi E. Levin, & Robert Butler, & Guillaume Dupont-Nivet, & Melanie Everett, & Sileshi Semaw., *A Female Homo erectus Pelvis from Gona,* Ethiopia., Science Vol 322, 14 November 2008, p.1089.

[77]((Coolidge, F. L., & Thomas Wynn., Op. Cit., 2009, p.109.

وفي السنوات الأخيرة دأب العلماء ما قبل التاريخ على اختبار فرضية مهمة تلت ما أكده رَف و ووكر؛ «أن السمات التشريحية لحوض الإنسان البدائي ربما حدَّت من نمو دماغ الإنسان إلى حين بلوغ المرحلة التي اتسعت عندها قناة الولادة إلى درجة تسمح بمرور رأس أكبر للجنين»، ويلمح هذا التأكيد إلى أن الأدمغة الأكبر والأحواض الأوسع ارتبطت ببعضها من وجهة نظر تطورية، فالأفراد الذين تميزوا بهاتين الصفتين كانوا أكثر نجاحاً في ولادة ذريّات عاشت لتنقل هذه السمات، ولعل هذه التغيرات في الصفات التشريحية للحوض، مشفوعة بتقديم العون عند الولادة (القبالة)، ما سمح بتحقيق الزيادة الكبيرة في حجم دماغ التي حدثت قبل نحو مليوني سنة.[78]

إن تشريح الهيكل العظمي، سواء لحوض الأم أم رأس الجنين وكتفيه، ليس العامل الوحيد المؤثر على نمط ودرجة صعوبة الولادة لدى البشر. فالأنسجة الرخوة لتجويف الحوض والمهبل تُضغط أو تتمدد أثناء الولادة، مما يُسهل مرور الجنين، وتُعد تأثيرات هرمون الريلاكسين hormone Relaxin عاملاً مهماً آخراً يعزز الولادة الناجحة، إذ يزداد إنتاج الريلاكسين بواسطة المبايض والرحم مع اقتراب نهاية الحمل، مما يزيد من مرونة أربطة الحوض، ويسمح هذا ببعض الحركة في حوض الأم؛ استجابةً لضغط رأس الجنين وكتفيه: ويمكن لعظام الحوض أن تتباعد قليلاً عند مفصل العانة والمفاصل العجزية الحرقفية، ويمكن أن يدور عظم العجز للأمام لتسهيل خروج رأس الجنين من خلال مخرج الحوض. بالإضافة إلى ذلك، تتميز عظام جمجمة الجنين بالمرونة، وتتشكل أثناء مرورها عبر قناة الولادة. ومن الملاحظ أن شكل جمجمة الجنين بيضوي أساساً؛ أطوله من الجبهة إلى مؤخر الرأس، وأضيقه بين الأذنين، وكذلك شكل قناة الولادة بيضوي؛ ولما كانت بقايا حديثي الولادة نادرة للغاية في السجل الأحفوري نظراً لهشاشتها الشديدة، لذلك يوفر شكل حوض الأم أفضل المعلومات حول عملية الولادة لدى أشباه البشر المنقرضين، وتركز هذه المراجعة على الاستدلالات المستخلصة من تشريح الحوض الأحفوري.[79]

لقد أثار الحوض الضيق لفتى تركانا إشكالية معمقة بين الباحثين في مورفولوجية وبنية الهيكل العظمي لأفراد الهوموإركتوس عن كيفية مرور الأطفال من قناة الحوض، وكان الدكتور

[78](Rosenberg, R, K., & Trevathan, W, R., Op. Cit., 2001, p.81.
[79](Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.4.

برنارد وود Bernard Wood قد تقدم بشروح مفادها أن شكل الحوض الحقيقي وحجمه، إضافةً إلى ما يمكن استنباطه من أحجام أدمغة البالغين عن حجم دماغ رضيع الهوموإركتوس؛ تشير جميعها إلى أن الرأس كان صغيراً بما يكفي لمروره من قناة الولادة، بالإضافة إلى وجود مدخل حوضي عريض وسطي وحشي (مستدل عليه من عينات غير مكتملة)، ما أدى إلى استنتاج أن الولادة كانت غير دورانية؛ وبالتالي لا توجد حاجة إلى دوران الجنين لمروره عبر قناة الولادة كما هو الحال عندنا؛ حيث يجبر الجنين على سلسلة من الدورانات أثناء مروره من قناة الولادة، حتى يتسنى له تمرير رأسه وكتفيه كونهما الأكبر حجماً والأكثر اتساعاً، بما يتوافق مع القطر الأكبر من قناة الولادة، ومن ثم كان من شأن هذا لدى أفراد الهوموإركتوس التخلص بفاعلية من أحد الأسباب الشائعة لإعاقة الولادة لدى الإنسان العاقل .[80]

تشير قناة الولادة البدائية المسطحة إلى أن نساء الهوموإركتوس احتفظوا بآلية الولادة البدائية غير الدورانية، إن عدم وجود آلية الولادة الدورانية يجعل الهوموإركتوس أقرب الأستراليوبيثك منهم للإنسان العاقل، إذ يشير وجود قناة ولادة مسطحة من المدخل إلى المخرج لدى الأستراليوبيثك أنه كان لديهم نوع من الولادة البدائية غير الدورانية، حيث كان رأس الجنين يدخل المدخل مواجهًا للجانب، ويبقى في هذا الوضع حتى يخرج من المهبل. لكن من المهم التنويه إلى أن الأستاذان تريفاثان Trevathan وروزنبرغ Rosenberg أشارا إلى أن الولادة لا يمكن أن تكون غير دورانية تماماً، لأنه كما هو الحال في البشر المعاصرين، كان لا بد أن يدور الرضيع بعد بروز الرأس للسماح بمرور كتفيه العريضتين والصلبتين، فمرور كتفي الرضيع ربما أثر على حجم وشكل الحوض بقدر ما أثر حجم الرأس.[81]

لابد من العودة للدماغ قليلاً، فالحوض لا يختصر كامل المشكلة، في الواقع إن شكل جمجمة حديثي الولادة من أبناء الهوموإركتوس لا يختلف كثيراً عن شكل جمجمة حديثي الولادة من أبناء الإنسان العاقل، على سبيل المثال تكون المنطقة الأمامية مستديرة من الأمام والمنطقة الجدارية أكثر تطوراً بصورة نسبية في شكلها المورفولوجي عند أطفال الهوموإركتوس منها عند البالغين منهم، وهذا بحد ذاته إشكال، في الواقع أن قحف الجمجمة وقاعدتها لهما نمو سريع، حيث يكتمل معظم هذا النمو بعمر 6 سنوات، بينما يستمر نمو الوجه طوال مراحل نمو الطفل كجزء

[80]((Churchill, S, E., & Vansickle, C., 2017, p.957.
[81]((Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.6.

من مسار نمو الهيكل العظمي، ولا يكتمل إلا بنحو عمر 16–18 سنة تقريباً. بالإضافة إلى ذلك، من الناحية الجينية يُعتقد أن النمو المقترن لقحف الجمجمة وقاعدتها يؤدي إلى تقييد نمو قاعدة الجمجمة باتجاه الجانبين، في حين أن نمو القحف للجمجمة لا يكون مقيداً بأبعاد القاعدة. وهكذا يفسر علماء الأنثروبولوجيا أنه نظراً للدماغ الكبير الآخذ في النمو وقاعدة الجمجمة الضيقة، فمن المرجح أن ينمو القحف نحو الخلف وإلى الأعلى لاستيعاب الدماغ، وربما أن الأمر أبسط من ذلك؛ إذ أنه مرتبط بتكوين الجينات وتطور السلالات في أشباه البشر.[82]

وبالنظر إلى أن البشر المعاصرين من الناحية التشريحية، وإلى أفراد النياندرتال، فإنهم يتشاركون في معدلات نمو دماغية مماثلة، يقترح بونس دي ليون Ponce de León وزملاؤه أن هذا النمط من نمو الدماغ كان مشتركاً مع الهوموإركتوس[83]. وتتوافق وجهة النظر هذه مع تحليلات أساتذة الأنثروبولوجيا لأنماط نمو دماغ الهوموإركتوس المعتمد بشكل أساسي على عينة طفل موجوكيرتو Mojokerto؛ وهو هيكل عظمي متحجر لأحد أطفال الهوموإركتوس في إندونيسيا يُعتقد أنه يبلغ من العمر 1,5 سنة ونصف تقريباً، والتي يقترح أنها تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة عند أطفال الإنسان العاقل مقارنة عما هو موجود عند البالغين من الهوموإركتوس.[84]

يقدر الأستاذ ستيفن لي Steven Leigh أن حجم دماغ الأطفال حديثي الولادة عند الهوموإركتوس يبلغ نحو 300 غرام، وأن نمو الدماغ السريع المبكر يتبع الولادة. وقد تم التحقق من دقة تقديرات ستيفن من خلال الاكتشاف الأخير لحوض أنثى بالغة من الهوموإركتوس من شرق أفريقيا أرخت ما بين 0.9 – 1.4 مليون سنة .[85]حتى وقت قريب كان الحوض الوحيد المعروف من الهوموإركتوس هو حوض فتى توركانا؛ وكان من الواضح أن حوض فتى توركانا لن يحل المشكلة، إذ لم يتم حفظ شظايا الحوض بشكل جيد، كما أن إعادة بناءه الحالية محل جدل

[82]((Clark, G., & Henneberg, M., *Cognitive and behavioral modernity in Homo erectus: skull globularity and hominin brain evolution*., Anthropological Review; Vol. 84 (4)., 2021, p.470.

[83]() Allen, J, S., *The Lives of the Brain*; *Human Evolution and the Organ of Mind*., London., 2009, p.76.

[84]((Clark, G., & Henneberg, M., Op. Cit., 2021, p.469.

[85]() Allen, J, S., Op. Cit., 2009, p.76.

كبير. علاوة على ذلك من المفترض أن تكون هذه العينة ذكراً شبه بالغ، وبالتالي فهي ليست مفيدة بشكل خاص حول قناة الولادة وأكبر حجم ممكن لدماغ الأطفال حديثي الولادة .[86]

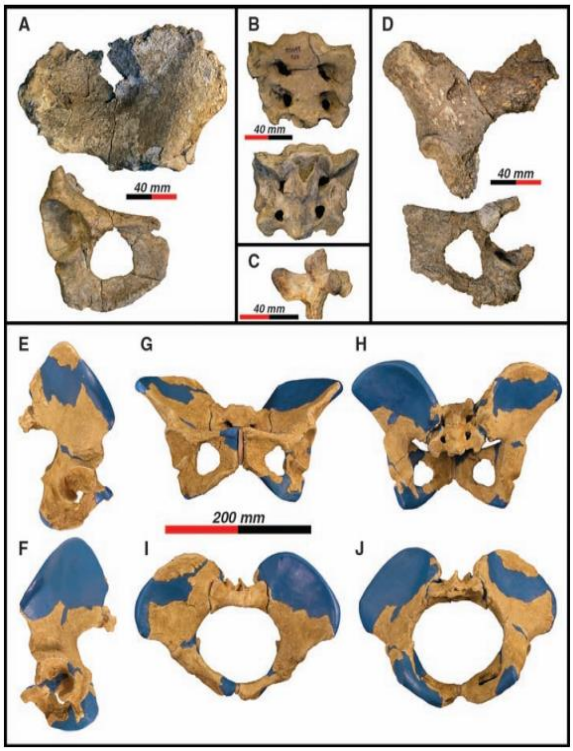

الحوض أنثى الهوموإركتوس وإعادة بنائه.

لن تحل هذه المشكلة إلا باكتشاف حوض انثى هوموإركتوس بالغة حقيقية، وهو ما حدث بالفعل؛ فقد أبلغ سكوت سيمبسون Scott Simpson وزملائه من علماء ما قبل التاريخ في سنة 2008م عن حوض من العصر الجليدي المبكر محفوظ بشكل جيد إلى حد ما، كشف النقاب عنه في غونا Gona (إثيوبيا)، وقد حصل على الرمز العلمي «27P» في الطبقة الأثرية «49BSN»، وقد نسب إلى عينة أنثى من الهوموإركتوس، في رواسب العصر البليستوسيني المبكر في منخفض عفار، برفقة مجموعة من القطع الأثرية الآشولية المبكرة، شمل الحوض كلا من العجز وعظم العانة، ويظهر جلياً بأنه لأنثى بالغة امتلكت وركاً عريضاً وقامة قصيرة؛ إذ لا يزيد طولها عن

[86](Neubauer, S., & Jean-Jacques Hublin., Op. Cit., 2012, p.577.

150سم، إن حجم الجسم الصغير جداً يُشير إليه العظم الحُقّي الصغير. لقد تعرض الحوض للكسر في الموقع فقام علماء الآثار بجمع شظاياه المبعثرة، وتمت عملية إعادة بناء الحوض بالكامل من قوالب الجبس عالية الدقة، الأبعاد الرئيسية للحوض ذات الصلة الوظيفية، والأسطح المفصلية تطلبت القليل من إعادة البناء أو أنها لم تتطلب؛ أي أن عملية إعادة بناء يمكن اعتبارها موثوقة للتفسير التشريحي وللقياس، وتشير إلى أن الحوض عند نساء الهوموإركتوس لا يختلف كثيراً عن الحوض عند نساء الإنسان العاقل[87]؛ فعلى الرغم من قصر قامة هذه الأنثى، كان لديها حوض كبير نسبيًا –على حد تعبير الأستاذ سكوت سيمبسون Scott Simpson وزملائه– فهو واسع في حالة الولادة[88]؛ إذ إن له مدخل بيضاوي مستعرض ومستوى وسطي، ومن المحتمل أيضاً أن يكون له مخرج بيضاوي مستعرض[89]، عموما إن الولادة غير الدورانية لطفل ذو دماغ وأكتاف أكبر نسبياً من شأنها أن تفسر الحاجة المستمرة للحوض الحقيقي العريض.[90]

هناك شِبه تناسب بين حجم رأس الوليد وأبعاد قناة الولادة، وعندما تم استخدام هذه العلاقات التشريحية لدى الإنسان العاقل لتقدير حجم رأس الوليد عند أفراد الهوموإركتوس؛ تم تقدير أن حوض أنثى غونا كان قادراً على ولادة أطفال بحجم دماغ أقصى يصل إلى 315 ملم؛ وهو الحجم الأقصى لدماغ أطفال الهوموإركتوس عند الولادة، ويتماشى تماماً مع تقديرات ستيفن لي، إن هذا الحجم أكبر بنسبة 30% مما كان هو متوقعاً مسبقاً من حوض فتى تُركانا. وإذا اختل ذلك التناسب فغالباً ما يتعرض كل من الوليد وأمه لخطر كبير ولولادة مؤلمة[91]، وهكذا يبدو أن نمط نمو الدماغ وتطوره الشبيه بالإنسان العاقل والنياندرتال قد ظهر في وقت مبكر .[92]

سادسا: الجمجمة:

منذ السبعينيات ظهرت الفروق المورفولوجية بين عينات جماجم الهوموإركتوس جلية، وكانت اكتشاف فريق ريتشارد ليكي لجمجمتين في توركانا؛ هما جمجمة 3733KNM–ER وجمجمة 3883KNM–ER الكاملتين بشكل ملحوظ، قد حولا المركز الجغرافي للنقاش إلى شرق

[87](Simpson, S. W., et la., Op. Cit., 2008, pp.1089, 1090.
[88]() Allen, J, S., Op. Cit., 2009, p.76.
[89](Neubauer, S., & Jean-Jacques Hublin., Op. Cit., 2012, p.577.
[90](Gruss, L, T., & Schmitt, D., Op. Cit., 2015, p.7.
[91](Simpson, S. W., et la., Op. Cit., 2008, pp.1089, 1090.
[92]() Allen, J, S., Op. Cit., 2009, p.76.

أفريقيا بدل من شرق آسيا، وإلى مشكلة مدى التنوع النوعي الذي يمكن أن يستوعبه الهوموإركتوس، ناقش الأستاذان ليكي ووكر أنه على الرغم من الاختلافات الكبيرة في كل من العصر الجيولوجي والفضاء الجغرافي بين الحفريات الأفريقية والآسيوية، إلا أن جمجمة الهوموإركتوس التي حملت الرمز العلمي 3733KNM–ER تشبه بشكل لافت للنظر جماجم الهوموإركتوس من بكين، وقد أرخت بـ 1,78 مليون سنة وقدرت سعتها بـ 850سم^3. واليوم يعتمد علماء ما قبل التاريخ لدراسة جماجم الهوموإركتوس على خمسة نماذج من جماجمهم المكتشفة، وهي جمجمة (دمانيسي، ونغاندونغ، وتشوكوديان، سانجيران، وكوبي فورا)، وتجدر الإشارة أن معلوماتنا قد تختلف استناداً إلى المتغيرات والنماذج التي تم النظر فيها، وغالباً ما تكون الفروق في شكل القحف، أو في سعة الجمجمة؛ حيث كانت جماجم دمانيسي أصغر بكثير من جماجم كل من نغاندونغ وتشوكوديان، أو في اتساع الأذنين فمثلاً كانت جمجمة نغاندونغ أكبر بكثير من تشوكوديان من حيث اتساع الأذنين[93]. ولعل أبرز الشواهد على الفروق المورفولوجية في جماجم الهوموإركتوس تظهر في دمانيسي وكوبي فورا؛ فخلال تنقيبات فريد سبور Fred Spoor وزملاءه على أطراف بحيرة توركانا تم الكشف في إحدى الحفريات على جمجمة جزئية تفتقر إلى معظم الوجه، حصلت على الرمز العلمي: 42700KNM–ER، أرخت بنحو 1,55 مليون سنة، بلغ الحجم القحفي فيها (الحجم الذي يشغله الدماغ داخل القحف) 691سم^3 فقط، لكن شكلها النموذجي في الغالب متوافق مع جماجم أفراد الهوموإركتوس، إن تشابه الجمجمة في الحجم والشكل مع جمجمة دمانيسي صاحبة الرمز العلمي: (2700D) والجماجم الأفريقية الأخرى المنسوبة إلى الهوموإركتوس تشير إلى أن هذه الجمجمة تنتمي إلى هذا النوع نفسه.[94]

إن دراسة مورفولوجيا الجمجمة هو أهم ما يمكن أن يقوم به أساتذة الاختصاص؛ لأن الجمجمة يمكن أن تعطينا معلومات دقيقة عن البنية الأساسية لدماغ، وكتلته الإجمالية، ويمكن تحديد عمر المتوفى من دروز الجمجمة وإقفالها، ومن خلال الأضراس ونموها وتآكلها، ويرى كثير من الباحثين أن تطور شكل الجمجمة إلى شكل أكثر رشاقة وكروية من شكل جماجم الهوموإركتوس

[93]((Anton, S. C., et. La., Op. Cit., 2016, p.13.

[94]((Lieberman, D. E., *Homing in on early Homo; newly described fossils from Georgia in Eurasia and from Kenya shed more light on the earliest members of the genus Homo. These finds indicate that there was considerable variability in their size and shape.,* Nature, Vol 449; 20 September 2007, p.292.

الذين هم أكثر قوة منا، كان مدفوعاً بالتغيرات في البنية العصبية المرتبطة في ظهور الحداثة السلوكية. إذ لوحظ أن شكل الجمجمة الكروي الذي ظهر متأخراً كثيراً عن الزيادات في حجم الدماغ، مع زيادة الكروية التي أصبحت واضحة خلال العصر الحجري القديم–الأوسط إلى الأعلى في أوروبا منذ نحو 50 إلى 40 ألف سنة، من المعتقد أن هذا حدث عندما أصبح الدليل على الحداثة السلوكية مرئياً في السجل الأثري. تعتمد هذه الأطروحة على العلاقة المفترضة بين كروية الجمجمة وتوسع مناطق معينة في الدماغ؛ إذ يُعتقد أن توسع العظم الجداري في الجمجمة، الذي يساهم في شكلها الكروي، يرتبط بتطور الشبكة العصبية ذات الوضع الافتراضي البشري الفريد. لقد كان الهوموإركتوس يفتقر إلى العظم الجداري الكروي المميزة للإنسان العاقل، إذ أن العظم الجداري يستدق بشكل وسطي ويلتقي في نهاية المطاف عند الدرز السهمي. علاوة على ذلك في الإنسان العاقل يكون الحد الأقصى لعرض الجمجمة معادلاً في كثير من الأحيان للعرض ثنائي العظم الجداري، في حين أن أكبر عرض للجمجمة عند الهوموإركتوس يكون قريباً من العرض الثنائي الأذني.[95]

من خلال تجميع أجزاء جمجمة من عدد من الأفراد الذين تم العثور على هياكلهم العظمية في تشوكوديان، أنشأ علماء التشريح جمجمة مركبة لأنثى بالغة من الهوموإركتوس قدر عمرها بنحو نصف مليون سنة مع حافة جبين واضحة.

[95]((Clark, G., & Henneberg, M., Op. Cit., 2021, pp.468-469.

تعرف الجمجمة علمياً بأنها الصندوق العظمي الذي يحفظ المخ وأوعيته وأعصابه وأغشيته، وذلك بالتحامها مع بعضها البعض عند سن البلوغ تقريباً، وتتألف أي جمجمة من ثمانية عظام كبيرة اثنتين مزدوجتين وهي العظم الجداري والعظم الصدغي لكل جهة، وأربعة عظام منفردة وهي العظم الجبهي والمصفوي (الغربالي) والإسفيني بالإضافة إلى عظم الوجه. عموماً يختلف شكل الرأس عند أفراد الهوموإركتوس عما هو عليه عند ذرية الإنسان العاقل بشكل لافت للانتباه، كما تميزت جماجمهم بالصلابة والسماكة والقوة؛ إذ يمكن أن يتجاوز سماكة جدار الجمجمة الـ 10ملم؛ فالجمجمة التي عثر عليها في سوريا في موقع الندوية بلغت سماكة العظم الجبهي فيها نحو 9ملم، في حين بلغت سماكة العظم الجداري نحو 12ملم؛ تحديداً في المنطقة السفلى من حدبة العظم الجداري، وهذا ما يفسر لنا أن أغلب العينات العظمية لأفراد الهوموإركتوس ممثلة بالجماجم. إن وظيفة هذه الكتلة الصلبة من الجمجمة عند أفراد الهوموإركتوس، والتي لا مثيل لها عند غيرهم من أشباه البشر في ما قبل التاريخ غير معروفة لنا.[96]

لقد اقترح نويل بواز Noel Boaz ورسل سيوشون Russell Ciochon من علماء الحفريات القديمة أن الجماجم المدرعة هي شكل من أشكال التكيف مع حياة شاقة وعنيفة، حتى أنهم يعتقدون أن الخدوش والشقوق الظاهرة في جماجم الهوموإركتوس من لونغوشان Longgushan الصينية، (وفي قوالب الجبس التي رسمها فايدنرايش للحفريات المفقودة) هي علامات على ما يصفه متخصصو الجريمة المعاصرون بضربة حادة على الجمجمة، أو "ضرب على الرأس"، لكن هل حقاً وصل الأمر بأفراد الهوموإركتوس للاقتتال فيما بينهم؟ في الواقع كان من الممكن أن يضرب بعض أفراد الهوموإركتوس بعضهم بعضاً على رؤوسهم بهراوات خشبية، أو أدوات حجرية، أو كليهما، ووفقاً لهذه النظرية –وهي منطقية من وجهة نظر واحدة– ربما تقاتل الذكور على الإناث، أو ربما قامت مجموعات عائلية أو مجموعات صغيرة بمهاجمة مجموعات أخرى بشكل روتيني، فالأدلة البيئية تشير إلى أن شمال الصين كان مكاناً صعباً للعيش، وقد شهد خلال الفترة الزمنية التي قطنها فيه أفراد الهوموإركتوس (منذ حوالي مليون سنة خلت حتى فترة متأخرة تقدر بنحو 250 ألف سنة أو حتى بعد ذلك)، ثلاث فترات جليدية، وخلال هذه الفترات التي انخفضت فيها درجات الحرارة تضاءلت الموارد الغذائية، وربما اضطرت مجموعات من أفراد الهوموإركتوس إلى الهجرة إلى مناطق جديدة، إن ضغوط الهجرة والمصاعب والمنافسة ولدت

[96]() Coppens, Y., & Denis Geraads., Op. Cit., 1994, p.160.

بدورها صِدامات وأعمال عنف مزمنة لابد منها وفق قواعد الطبيعة في «الصراع من أجل البقاء»، وبالتالي كان الأفراد ذوي الجماجم الأكثر سماكة أوفر حظاً بالنجاة من الهجمات التي تنطوي على أعمال عنف يتخللها ضرب للرأس. وعلى مر الأجيال انتشرت جينات أصحاب الجماجم السميكة بين أفراد الهوموإركتوس. ويناقش بوعز وسيوتشون بأن «العنف كان سائداً جداً بين أفراد الهوموإركتوس لفترة طويلة من الزمن، وإن القتل الطائش والمنهجي وغير الرحيم كان أمراً مشروعاً لأي فرد من خارج المجموعة الصغيرة الخاصة بصاحبها».[97]

يقترح هذا النموذج أن زيادة تأنيث وتشكل الجمجمة، إلى جانب التغييرات المرتبطة بها في التنظيم الكيميائي العصبي، ربما تكون ناجمة عن اختيار التسامح الاجتماعي والمؤيد للمجتمع في الانتقال من أعضاء أقوياء بعظام سميكة إلى أعضاء رشيقين من جنس الإنسان .[98]طبعا كما هو الحال مع العديد من نظريات تطور الإنسان وأنواع أشباه البشر، ستكون هناك حاجة إلى مزيد من الأدلة، والمزيد من الدراسات لتحديد فيما إذا كان هذا التفسير المظلم لكيفية حصول أفراد الهوموإركتوس الآسيوي على جمجمته سميكة أمراً صحيحاً.[99]

يقدر حجم الجمجمة عند أفراد الهوموإركتوس ما بين 750 – 1250سم^3؛ إي بمعدل متوسط قدره 930سم^3، وهذه النسبة ترقى إلى 70% من حجم دماغ الإنسان العاقل، امتاز شكل الجمجمة بعظم جبهة بارزة، مسطحة ومتراجعة نحو الخلف، وتنحدر لتندمج بزاوية مع الحاجب العظمي فوق عينيه؛ إذ تبرز الجبهة فوق الحاجبين وتتصل في منطقة المقطب لتشكل طارة قوية فوق الحاجبين، أما القلنسوة فهي طويلة ومستوية، أي أن صندوق الدماغ أكثر تمدداً من الأمام إلى الخلف، أكثر مما هو مستدير، كما هو الحال عند أفراد الإنسان العاقل، أما الحد الأقصى لاتساع الجمجمة يقع في منطقة الأذن، ويتناقص العرض بشكل مطرد باتجاه أعلى القلنسوة. الشكل العام لقلنسوة الجمجمة –عند النظر إليها من الجانب– طويلة ومنخفضة، مع جبهة متراجعة وزاوية ملحوظة بين المستويين القفوي والقذالي، وفي أعلى القلنسوة يوجد نتوء أو حافة غير حادة (حافة نائتة) من العظم تمر في منتصف القلنسوة من الجزء الأمامي وحتى الجزء الخلفي من

[97](Stefoff, R., Op. Cit., 2010, p.84.
[98](Clark, G., & Henneberg, M., Op. Cit., 2021, p.468.
[99](Stefoff, R., Op. Cit., 2010, p.84.

القحف، ويسمى هذا النتوء بالنتوء السهمي، وعموماً تزداد سماكة عظم القلنسوة جانبياً وقاعدياً[100]. ونتيجة لاستطالة الجمجمة يظهر العظم القذالي (عجز الجمجمة) على شكل نتوء بارز نحو الخلف، ويمتاز القحف بأنه مرتفع مع زاوية حادة، مع وجود أكبر اتساع للقحف في الجزء السفلي من الجمجمة، على عكس الإنسان العاقل ذو القحف المستدير.

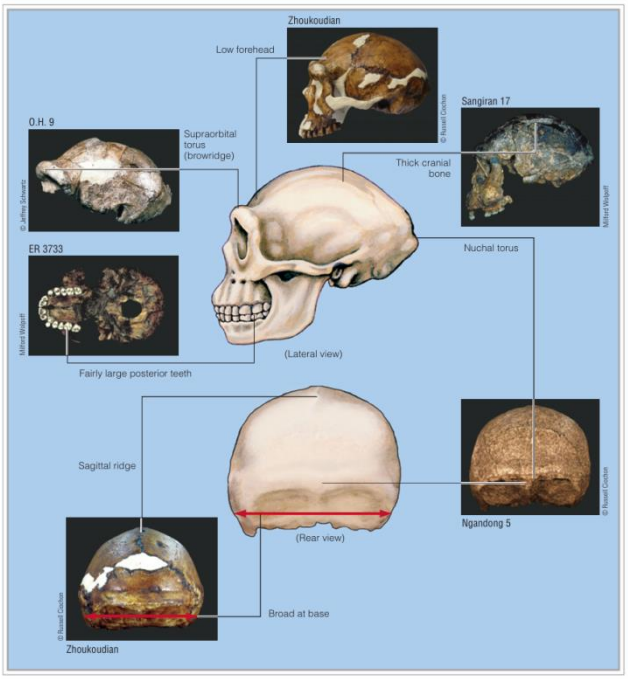

دراسة متكاملة لمورفولوجيا الجمجمة بالاعتماد على عينات مختلفة من جماجم الهوموإركتوس

ولا شك أن هذا الشكل المورفولوجي للجمجمة قد انعكس على شكل الدماغ عندهم؛ فالفص الجبهي والفص الصدغي هما أصغر حجما مما هو عند الإنسان العاقل، ورغم ذلك يمتلك الهوموإركتوس مجموعة كاملة من التكيفات المعرفية التي تعد من ميزات الإنسان العاقل، دون أن يمتلك جمجمة كروية ذات جداريات منتفخة. وتشبه الفتحة العظمى في قاعدة الجمجمة عند الهوموإركتوس ما هو موجود عند الإنسان العاقل؛ إذ تقع في موقع مركزي منها، مما يشير إلى أن

[100]((Brown, P., *Chinese Middle Pleistocene hominids and modern human origins in east Asia*., Human Roots Chs 9 to 16; 2001, p.141.

الهوموإركتوس كان منتصباً بشكل معتاد ويتحرك على قدمين اثنتين، فتشريحياً ترتبط المشية المستقيمة على قدمين اثنتين لأشباه البشر بالفتحة المركزية للجمجمة Foramen Magnum، التي تسمح بمرور الحبل الشوكي الموجه عمودياً إلى مركز الجمجمة، أي تصل الحبل الشوكي بالدماغ، بينما في الحيوانات التي تمسي على أربعة فإنه توجد إلى الخلف مباشرة أكثر. ويبدو أن العضلات التي تتحكم بالرأس والرقبة كانت عندهم أكثر قوة من عضلات الرقبة عندنا، ولاسيما على الجزء الخلفي من العنق. أما وجههم فهي كبيرة وعريضة قليلة البروز، يبدو إن الفتحة المركزية للجمجمة وانخفاض بروز الوجه عند أشباه البشر؛ شرط أساسي لتكوين المسالك الصوتية الفريدة والضرورية لتطور اللغة.[101]

أما الوجه فإنه يتوضع أسفل حواف الجبين البارزة والمميزة، ويمتاز بأنه بارز للأمام وكبير؛ فعظام وجناتهم هي أكبر بالنسبة لأبعاد الوجه، حتى أن علماء الأنثروبولوجيا يقدرون مساحة القسم الوجهي أكبر من القسم الدماغي تقريبا. جباههم رقيقة ومائلة إلى الخلف وراء عظمة الجبين البارزة إلى الأمام، والحواجب غليظة ومتصلة ببعضها، وأثخن ما تكون فوق محجر كل عين، وتشكل رفا عظميا فوق العينين على شكل مظلة شبه واقية، أما مدارات العين في عميقة ودائرية نسبياً[102]، امتاز أفراد الهوموإركتوس بأنف خارجي بارز وفريد، ينعكس تركيبه الأساسي في سلسلة من السمات الهيكلية، بما في ذلك تحدب عظم الأنف، وزاوية أنفية داخلية، وانقلاب فتحة الأنف الجانبية، وبروز الشوكة الأنفية الأمامية ووضعها الأمامي، وزاوية حادة في المنحدر السنخي تحت الأنفي، وتوسع في عرض عظام الأنف بالنسبة إلى فتحة الكمثرى .[103]ولا يبدو أن فتحة الأنف (تجويف النتوء الجبهي الأنفي) كانت واسعة جداً، وجسر الأنف منخفض قليلا[104] (يتكون الأنف من عظمتين أحداهما مقعرة والثانية محدبة، وتتصل هاتان العظمتان مع بعضيهما في منطقة

[101]((Clark, G., & Henneberg, M., Op. Cit., 2021, p.468.

[102]((Choudhary, V., *Homo erectus from Africa, Asia, Europa.,* Unit 7; Block 3; *Homo Erectus to Modern Homo Sapiens*., from Book; *Introduction to Biological Anthropology*., School of Social Sciences Indira Gandhi National Open University, November 2019, p.96.

[103]((Robert G. Franciscus, & Erik Trinkaus., Nasal morphology and the emergence of Homo erectus., American Journal of Physical Anthropology: Volume 75, Issue 4, April 1988, p.1.

[104]((Choudhary, V., Op. Cit., 2019, p.96.

الوسط، ومع العظم الجبهي من أعلى، ويتصل الطرف الجانبي مع الفك العلوي والجبهة الداخلية)، إلا أن أنوفهم ذات فتحات متجهة للأسفل مماثلة لما هو موجود عندنا، بدلاً من الخياشيم المتجهة للأمام والموجودة في الرئيسيات الأخرى. إن فتحات الأنف الأطول والمتجهة للأسفل تسمح بتدفئة الهواء البارد قبل دخوله إلى الرئتين، وربما كان ذلك بمثابة تكيف مع المناخات الباردة[105]. إن هذه الظوهر التشريحية مع أفراد الهوموإركتوس، (رغم أنها عند الإنسان العاقل أكثر تطوراً في سياق تقلص القحف والوجه والأسنان)، تبدو أنها كانت في المقام الأول استجابة للحاجة للحفاظ على الرطوبة في بيئة قاحلة من خلال تعزيز الاضطرابات وتبريد الهواء الزفيري، ويشير ظهورها في هذا الوقت، بالتزامن مع وجود تشريح حركي مقاوم للتعب مميز لأعضاء قدماء من جنس بشري مشى منتصباً، إلى التحول نحو نوبات مطولة بشكل متزايد من النشاط في البيئات المفتوحة والقاحلة.[106]

محالة إعادة بناء وجه إنسان جاوا

[105]((Radtke, T., Op. Cit., 2019, p.171.

[106]((Robert G. Franciscus, & Erik Trinkaus., Op. Cit., 1988, p.1.

وبخصوص الفكين فهما كبيرين، وتشكل نقطة التقاء الفك السفلي بالفك العلوي بروزاً ظاهرا إلى الأمام، وتشير مناطق ارتباط عضلات المضغ والتعزيز الهيكلي إلى التكيف مع المضغ القوي، وقد أظهرت عينات جاوا أحياناً انبساطاً أمام ناب بارز ومدبب قليلاً في الفك العلوي، أما الفك السفلي طويل من الأمام إلى الخلف وبلا ذقن، ويمتاز بالقوة والسماكة. ولما كانت الحفرة الفكية للمفصل الفكي الصدغي هي بنية معقدة طوبوغرافياً، فإنها تمتلك العديد من الخصائص التصنيفية؛ والتي قد تكون مناسبة للتحليل التصنيفي؛ بسبب موقعها التشريحي "المخفي" داخل قاعدة الجمجمة وبنيتها الصلبة، فالحفرة موجودة في كثير من العينات ومكتملة في الفك، ما يجعل تحليل هذه المنطقة أسهل دون مواجهة مشكلة البيانات المفقودة، ومن دراستها تبين أن هذه الحفرة في فكوك الهوموإركتوس ضحلة وواسعة مع جدار وسطي مرتفع كما هو الحال في أحد أفراد الهوموإركتوس الذي اكتشفه فريق ريتشارد ليكي في السبعينيات ويحمل الرمز العلمي KNM–ER 3733وفق تصنيفات متحف كينيا .[107]

أما فيما يخص مورفولوجيا الأسنان عند الهوموإركتوس هي أقرب لما هو موجود عند الإنسان العاقل مما هو عليه الحال عند الأسترالوبيثك، لكنها أكبر من أضراس الإنسان العاقل[108]، ويظهر هذا جليا في تشكل الضواحك المنخفضة، والميل إلى أحجام نسبية أصغر للأضراس الخلفية مقارنةً بالهومو الأقدم. عموما يحمل الفك عند الهوموإركتوس أضراس كبيرة ذات جذور طويلة، والأسطح الإطباقية للأضراس بها تجاعيد معقدة[109]. وتتوزع هذه الأضراس على شكل مغارف على جانبي اللسان. إن دراسة هذه الأضراس يبين أنها كانت تمثل تغيرا تدريجيا نحو أطعمة أكثر ليونة، بما في ذلك المزيد من اللحوم والمواد الغذائية.

الخاتمة:

[107]((Barash, A., & Markus Bastir, & Ella Been., *3D Morphometric Study of the Mandibular Fossa and Its Implication for Species Recognition in Homo erectus*., Advances in Anthropology, 5, 2015, pp.152, 153.

[108]((Choudhary, V., Op. Cit., 2019, p.96.

[109]() Rukang, W., & Lanpo, J., Op. Cit., 1994, p.271.

يخلص هذا البحث أن كثيراً مما كنا نعتقد أنها مظاهر مورفولوجية ناتجة عن التكيف مع عوامل المناخ والمكان، هي في حقيقتها مظاهر ناتجة عن برمجيات جينومية أصيلة في جنسنا البشري ميزتنا عن باقي الكائنات على سطح الكوكب، كان أهمها تحرر اليدين، والوقفة المنتصبة، والسير على قدمين، وتناسق شكل الساقين مع الكاحل والركبة والقدمين. كما يخلص البحث أن الفروق المورفولوجيا الطفيفة بين أفراد الهوموإركتوس؛ كان في أغلبها تكيفات فرضتها البيئة التي عاشوا فيها، وهي مقبولة ويمكن تصنيفها في خانة «اللدانة النمائية»، التي تشرح لنا الفروق المورفولوجية حتى بين أبناء الجنس الواحد، وربما بين أبناء العائلة الواحدة. ثانيا تعد مورفولوجيا الهوموإركتوس متقدمة أكثر مما كنا نعتقد قبل عقد من الزمان، وهي في واقع الأمر أقرب لأفراد الإنسان العاقل منها إلى النياندرتال. ثالثا كان أفراد الهوموإركتوس شديدي الشبه بنا من حيث المورفولوجيا العامة للهيكل العظمي والوقفة المنتصبة وآليات التكيف مع الوسط الحار، واستطاع العلماء الاطمئنان إلى هذه النتيجة بعد اكتشاف الهيكل العظمي لفتى توركانا. رابعا نجح أفراد الهوموإركتوس في التكيف مع الأوساط البيئية التي عاشوا فيها، فربما أنهم تفوق علينا في طول أجسادهم وطول أطرافهم أيضا، لكن ذلك اعتبر تكيفا عاماً ناسب البيئة الاستوائية الحارة التي عاشوا بها في شرق إفريقيا، في حين أن اعتدال أطرافهم وأطوالهم في جنوب شرق آسيا هو تكيف مع البيئة المعتدلة أكثر. خامساً كانت الوقفة المنتصبة، والسير على قدمين، والجلد العاري من الشعر، ولون البشرة السوداء ميزات جيدة مع أشعة الشمس الحارقة في شرق إفريقيا، وجميعها ميزات ناسبت البنية المورفولوجيا لأفراد الهوموإركتوس. سادسا يظهر أن عظم الحوض عند أفراد الهوموإركتوس أصغر من عظم الحوض عند الإنسان العاقل؛ وهذه السمة المورفولوجيا لا يمكن الجزم فيها مطلقاً، رغم أن الإشارات الحديثة تبين أن حوض الهوموإركتوس لم يكن أضيق من حوض الإنسان العاقل، وأن النتيجة التي اعتمدها الباحثون فيما مضى قائمة على حوض فتى توركانا الذي ربما كان يعاني مشاكل باثولوجيه. وبغض النظر عما تقدم ما زال الباحثون ميالين إلى أن الولادة عند أفراد الهوموإركتوس ما كانت غير دورانية على النقيض مما هو الحال عندنا. سابعا: أعطت جماجم الهوموإركتوس بيانات مختلف من حيث الشكل العام لمورفولوجيا الجمجمة فيما بينهم، إلا أن تلك الفروق مقبولة نوعا ما، وتمحورت الفروق بشكل أساسي في السعة، وشكل القحف، إلا أنها لا ترقى للفروق بين جماجم الهوموإركتوس وجماجم الإنسان العاقل؛ إذ كانت الفروق بينهم ظاهرة سواء في القلنسوة، أو العظم القذالي، أو العظم الصدغي، أو العظم الجداري،

أو العظم الجبهي، لا بل وحتى في الوجه سواء في شكل الحاجبين أو الوجنتين، أو الفكين أو محجر العينين أو حتى في شكل الأنف الذي كان قريبا جدا من شكل أنوفنا.

المراجع المعتمدة: **References**

(1 Allen, J, S., *The Lives of the Brain*; *Human Evolution and the Organ of Mind*., London., 2009.

(2 Anton, S. C., & Taboada, H. G. & Middleton, E. R., & Rainwater, Ch. W. & Taylor, A. B. & Turner, T. R. & Turnquist, J. E. & Weinstein, K. J. & Williams, S. A., Morphological variation in Homo erectus and the origins of developmental plasticity., The Author(s) Published by the Royal Society, 13 June 2016.

(3 Barash, A., & Markus Bastir, & Ella Been., *3D Morphometric Study of the Mandibular Fossa and Its Implication for Species Recognition in Homo erectus*., Advances in Anthropology, 5, 2015.

(4 Bartstra, Gert-Jan., *Indonesia; in the period of Homo habilis and Homo eractus*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization, 1994.

(5 Bribiescas, Richard G., *Men: evolutionary and life history*., First Harvard University Press paperback edition, 2008.

(6 Brown, P., *Chinese Middle Pleistocene hominids and modern human origins in east Asia*., Human Roots Chs 9 to 16; 2001.

(7 Carotenuto, F., & Tsikaridze, N., & Rook, L., & Lordkipanidze, D., & Longo, L., & Condemi, S., et al., *Venturing out safely: The biogeography of Homo erectus dispersal out of Africa*., Journal of Human Evolution, 95, 1-12., 2016.

(8 Choudhary, V., *Homo erectus from Africa, Asia, Europa.,* Unit 7; Block 3; *Homo Erectus to Modern Homo Sapiens*., from Book; *Introduction to Biological Anthropology*., School of Social Sciences Indira Gandhi National Open University, November 2019.

(9 Churchill, S, E., & Vansickle, C., Pelvic Morphology in Homo erectus and Early Homo., The anatomical record 300, 2017.

(10 Clark, G., & Henneberg, M., Cognitive and behavioral modernity in Homo erectus: skull globularity and hominin brain evolution., Anthropological Review; Vol. 84(4), 467–485., 2021.

(11 Coolidge, F. L., & Thomas Wynn., *The Rise of Homo sapiens*; *The Evolution of Modern Thinking*., United Kingdom 2009.

(12 Coppens, Y., & Denis Geraads., *The period of Homo Habilis and Homo Erectus*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization 1994.

(13 Cremo, M., *Hidden History of the Human Race*., California.,1994.

(14 Dzhinenko, E., *The Cognitive Evolution of Homo erectus The Cognitive Evolution of Homo erectus*., The Undergraduate Research Journal at the University of Northern ColoradoLM, Volume 11, Number 1, July 2022.

(15 Farb, P., *Humankind*., First Edition, Jonathan Cape, London 1978.

(16 Gruss, L, T., & Schmitt, D., *The evolution of the human pelvis: changing adaptations to bipedalism, obstetrics and thermoregulation*., Rstb; Royal Society Publishing. org Phil. Trans. R. Soc. B 370: 20140063, 2015.

(17 Hatala, K. G., & Neil t. Roach & Kelly R. ostrofsky & Roshna e. Wunderlich & Heather L. Dingwall & Brian A. Villmoare & David J. Green & John W. K. Harris & David R. Braun & Brian G. Richmond., *Footprints reveal direct evidence of group behavior and locomotion in Homo erectus*., Scientific Reports, June 2016.

(18 Jablonski, N, G., *The Naked Truth*, Recent findings lay bare the origins of human hairlessness-and hint that naked skin was a key factor in the emergence of other human traits, Scientific American, Vol 302, No 2, 2010.

(19 Klein, R, G., *Hominin dispersals in the Old World*., Chapter 3, January., 2005.

(20 Leonard, W. R., *Food for thought*, *Dietary change was a driving force in human evolution*., Scientific American, Vol 287, number 6, December 2002.

(21 Meyer, M., Functional biology of the homo erectus axial skeleton from Dmanisi, Georgia., Presented to the Faculties of the University of Pennsylvania in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy 2005.

(22 Mussi, M., & Matthew M. Skinner., & Rita T. Melis., & Joaquîn Panera., & Susana Rubio-Jara., & Thomas W. Davies., & Denis Geraads., & Hervé Bocherens., & Giuseppe Briatico., & Adeline

Le Cabec., & Jean- Jacques Hublin., & Agness Gidna., & Raymonde Bonnefille., & Luca Di Bianco., & Eduardo Méndez - Quintas., *Early Homo erectus lived at high altitudes and produced both Oldowan and Acheulean tools*, Science 382, 713-718, 2023.

(23 O'Connell, J. F., & Hawkes, K., & Blurton Jones. N. G., *Grand mothering and the evolution of Homo erectus*., Journal of Human Evolution 36, 1999.

(24 Radtke, T., *Physical Anthropology*, An Open Educational Resources Publication by Taft College Authored and compiled by Sarah Etheredge, College of the Canyons, Version 2; 2019.

(25 Rosenberg, R, K., & Trevathan, W, R., *The Evolution of Human Birth*., Scientific American, December 2001.

(26 Rosinger, A, Y., *Breaking a Sweat*., Scientific American, July 2021.

(27 Ruff, Ch., *Femoral/humeral strength in early African Homo erectus*., Journal of Human Evolution, March 2008.

(28 Rukang, W., & Lanpo, J., *China; in the period of Homo habilis and Homo erectus*., In book: *History of Humanity*, Vol I; Prehistory and the Beginnings of Civilization, Edited by: S. J. de Laet Co-edited by A. H. Dani, J. l. Lorenzo and R. B. Nunoo., United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization 1994.

(29 Senut, B., "*Bipédie et climat*". Comptes Rendus Palevol 5; 2006.

(30 Simpson, S. W., & Jay Quade, & Naomi E. Levin, & Robert Butler, & Guillaume Dupont-Nivet, & Melanie Everett, & Sileshi Semaw., A Female Homo erectus Pelvis from Gona, Ethiopia., Science Vol 322, 14 November 2008.

(31 Stefoff, R., *First humans; (Humans: an evolutionary history)*., Marshall Cavendish Benchmark, New York 2010.

(32 Tattersall, I., *The word from Beginnings to 4000 BCE*., Oxford University Press, 2008.

(33 Tattersall, I., *Homo sapiens has had the earth to itself*., Scientific American, 2003.

(34 Walker, A., & Leakey, R., *The Nariokotome Homo erectus Skeleton.,* Cambridge, MA: Harvard University Press 1993.

(35 Xing, S., & Carlson, K. J., & Wei, P. He, J., Liu, W., Morphology and structure of Homo erectus humeri from Zhoukoudian, Locality 1., PeerJ 19 January 2018.

الصراع المصري العثماني (1830–1840)

* إبراهيم علاء الدين

** وسام عيّاش

*** رشا كميل

الملخص

حظيت بلاد الشام الممتدة من جبال طوروس شمالاً، وحتى شمال سيناء جنوباً ومن غرب العراق شرقاً، إلى ساحل البحر المتوسط غرباً، بأهمية تاريخية واقتصادية وسياسية وعسكرية كبيرة، نتجت في المقام الأول عن أهمية موقعها الجغرافي والاستراتيجي.

ستتناول هذه الدراسة الصراع المصري –العثماني في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، حيث مثَّل توسع محمد علي في بلاد الشام مرحلة تاريخية هامة ذات مغزى في تاريخ المنطقة العربية، وكان لها تأثيرها القوي في أوروبا وتاريخ العلاقات الدولية، وتوصلت الدراسة إلى أن تفكير محمد علي ببناء دولة مصرية حديثة قادهُ بالضرورة إلى تتبع الارتباطات الاستراتيجية لمصر بالأطراف المحيطة بها، وهي بمجملها عربية وأبرزها أهمية الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط (بلاد الشام)، لكونه جبهة مصر الشمالية ومحور الخطر العثماني إلى مصر.

كلمات مفتاحية: الدولة العثمانية – بلاد الشام – الحرب اليونانية– معاهدة هنكار اسكله سي– معاهدة لندن.

* الدكتور المشرف: أستاذ مساعد – قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة اللاذقية- اللاذقية – سوريا.
** الدكتور المشارك: مدرّس – قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة اللاذقية- اللاذقية – سوريا.
*** طالبة - دراسات عليا (دكتوراه)- قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة اللاذقية – طرطوس – سوريا.
rshakmyl725@gmail.com

The Egyptian-Ottoman conflict (1830-1840)

* Ibrahim Alaeddin

** Wisam Ayyash

***Rasha Kamil

Abstract

The Levant, extending from the Taurus Mountains in the north to northern Sinai in the south, and from western Iraq in the east to the Mediterranean coast in the west, has enjoyed great historical, economic, political and military importance, resulting primarily from the importance of its geographical and strategic location. This study will examine the Egyptian-Ottoman conflict in the fourth decade of the nineteenth century, as Muhammad Ali's expansion in the Levant represented an important and significant historical stage in the history of the Arab region, and had a strong impact on Europe and the history of international relations. The study concluded that Muhammad Ali's thinking about building a modern Egyptian state necessarily led him to follow the strategic connections of Egypt with the surrounding parties, which are mostly Arab, and most notably the importance of the eastern coast of the Mediterranean Sea (the Levant), as it is Egypt's northern front and the axis of Ottoman danger to Egypt.

Keywords: Ottoman Empire - Levant - Greco-Roman War - Treaty of Hünkâr İskelesi - Treaty of London.

* Assistant Professor - Department of History - Faculty of Arts and Humanities - University of Lattakia - Lattakia - Syria.

** Professor - Department of History - Faculty of Arts and Humanities - University of Lattakia - Lattakia - Syria.

*** Student - Postgraduate Studies (PhD) - Department of History - Faculty of Arts - University of Lattakia - Tartous - Syria. rshakmyl725@gmail.com

المقدمة

دخل محمد علي مصر عام 1799م وكان عمره ثلاثين عاماً، جاء إلى مصر كمساعد لابن عمه خليل آغا الذي عُين بأمر الدولة العثمانية قائداً لسرية مؤلفة من مائتي متطوع، وكانت مصر لا تزال تحت الاحتلال الفرنسي، وعندما فرَّ خليل آغا ترأس محمد علي السرية وأخذ يكتسب الأهمية بصورة مطردة بعد الاحتلال الفرنسي، حيث كان يقبض على المماليك الذين يخرجون عن طاعة الباب العالي فجذب انتباه الباب العالي هذا الضابط الشاب وبدأ يعتمد عليه.

وشارك محمد علي في الحرب اليونانية إلى جانب الدولة العثمانية، وخرج منها دون أن يظفر بفتوح جديدة ولم يحقق أي استفادة من المشاركة فيها، وقد أرادت الدولة العثمانية أن تعوض عليه ما فقده في هذه الحرب، فأسندت إليه ولاية جزيرة كريت لكن هذا التعويض لم يكن ذا قيمة ورأى أن يضم بلاد الشام إلى مصر، وطلب محمد علي أكثر من مرة من السلطان محمود الثاني أن يمنحه بلاد الشام ولكن دون جدوى، ولم يُجبهُ السلطان في طلبه فأعتزم محمد علي أن يناله بحد السيف.

إشكالية الدراسة:

إن الحملة التي وجهها محمد علي إلى بلاد الشام سنة 1830، بقيادة ابنه إبراهيم باشا تؤلف صفحات ذات شأن عظيم من تاريخ بلاد الشام، فهل نجح محمد علي في تحقيق طموحاته السياسية وإقامة إمبراطورية عربية قوية مستقلة عن الدولة العثمانية؟

وما طبيعة الدور الذي لعبته القوى الأوروبية بالتدخل بهذا الصراع إيجاباً أو سلباً؟

أهمية الدراسة:

ارتبطت مصر منذ القدم ببلاد الشام ارتباطاً أملتهُ الظروف الطبيعية، وتكمن أهمية الدراسة في إلقاءها الضوء على فترة مهمة من تاريخ الدولة العثمانية، وطبيعة علاقتها بأحد ولاتها (محمد علي) والي مصر نظراً لأهمية تجربة الحكم المستقل الذي أنشأه محمد علي، ونرجو من خلال هذه الدراسة أن نضيف رصيداً نظرياً لذلك الموجود من خلال استخلاص مجريات هذا الصراع ونتائجه.

الجديد في الدراسة:

أردنا أن تفتح هذه الدراسة الباب أمام الباحثين والطلبة للتعرف على هذه المرحلة التاريخية كونها فترة مهمة في تاريخ بلاد الدولة العثمانية، وبما أن أغلب الدراسات السابقة ركزت على السرد العسكري لهذا الصراع جاءت هذه الدراسة للتركيز على الدبلوماسية العثمانية التي هدفت لاحتواء الصراع المصري –العثماني برعاية أوروبية لتسوية المسألة المصرية في إطار آلية توازن القوى الأوروبية.

أهداف الدراسة:

يتمثل الهدف الرئيس لهذه الدراسة في معرفة طبيعة حملة محمد علي على الشام خلال القرن التاسع عشر، ومعرفة دوافع الدول الأوروبية لاتخاذها مواقف صارمة تجاه الحملة، وصولاً لانسحاب جيوش محمد علي من بلاد الشام، حيث اختلفت الآراء حول تجربة محمد علي فمنهم من عدها مشروعاً نهضوياً أعاد لمصر دورها الريادي في المنطقة، ومنهم من رآها مشروعاً توسعياً استنزف ثروات بلاد الشام لتحقيق مآرب شخصية وتمرداً على الدولة العثمانية، وتهدف الدراسة إلى الوقوف على حقيقة هذا الصراع، وهل نجح محمد علي في تحقيق أهدافه.

فرضيات البحث:

شكل العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي في الفترة الممتدة بين عامي (1830–1840)، الإطار الزمني لعنوان هذه الدراسة، بينما شكلت بلاد الشام بكامل ولاياتها الإطار الجغرافي.

مصطلحات البحث:

كوتاهية (kotahia): تقع في الأناضول، مركز لواء كوتاهية وسلطات أونو في ولاية "جداوندكار".

معاهدة هونكار اسكله سي (Hünkâr iskelesi): معاهدة تاريخية شهيرة بين الدولة العثمانية وروسيا وقعت عام 1833، في منطقة بالقرب من إسطنبول (اسكدار/اسكوداري)، في قصر اسكله سي (çiragansarayi).

دراسة مرجعية:

1- عصر محمد علي- عبد الرحمن الرافعي – القاهرة – 1989- هذا الكتاب يتناول عصر محمد علي في مصر والزعامة الشعبية في السنوات الأولى من حكمه، وينتقل بعد هذا إلى مرحلة إقصاء الزعامات الشعبية عن الميدان السياسي وانفراد محمد علي بالحكم، ثم الولوج في السياسة الداخلية لتحديث وتطوير مصر، باختصار أنه مرجع أساسي للدارسين والمهتمين بتاريخ مصر وبلاد الشام والعلاقات بينهما في العصر الحديث.

2- الحكم المصري في الشام – لطيفة محمد سالم – القاهرة – 1990- يُعد الكتاب مرجعاً أساسياً لفهم هذه المرحلة التاريخية التي شكلت جزءاً هاماً من تاريخ المشرق، خاصة فترة التوسع المصري في الشام، الكتاب دراسة تاريخية وأكاديمية معمقة، تقدم تحليلاً شاملاً ومفصلاً لتجربة الإدارة والحكم المصري في بلاد الشام خلال فترة تاريخية هامة.

منهجية الدراسة:

1-المنهج التاريخي العلمي: الذي سلط الضوء على أسباب الصراع المصري – العثماني، باتباع تسلسل تاريخي وزمني للأحداث من خلال المادة العلمية التي تم جمعها من المصادر والمراجع.

2-المنهج التحليلي: تحليل جذور الصراع المصري –العثماني وتطوراته.

مناقشة الدراسة:

-كان محمد علي يهدف إلى بناء دولة قوية في مصر يتجاوز كونها مجرد ولاية عثمانية ويتحول من تابع للسلطان إلى حاكم مستقل يسعى لتشكيل إمبراطورية عربية قوية، وهو ما قاده إلى التمرد المباشر على الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت قواته البرية والبحرية على أهبة الاستعداد، وراح يلتمس ذريعة للزحف على بلاد الشام.

أسباب الصراع المصري – العثماني:

بدأت ملامح الصراع بين الدولة العثمانية ومحمد علي تتجه نحو حالة من التأزم عقب فشل كل محاولات محمد علي [1] باشا (1770–1849م)، السلمية عند السلطان محمود الثاني[2](1808–1839م)، لإقناعه بضم بلاد الشام إلى ولايته مصر، فقد خاب ظن محمد علي باشا من خلال الانتصارات المتلاحقة التي حققها لمصلحة الدولة العثمانية بتنفيذه لأوامر السلطان في محاربة الحركة الوهابية[3] بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ونجد (1811–1818م)، وإخماد ثورة اليونان (حرب المورة)[4] (1824–1827م) التي خسر فيها أسطوله البحري، فأعتقد محمد علي أن السلطان سيكافئهُ بمنحه ولاية بلاد الشام، ولما خاب ظنه أقدم على تجريد حملة عسكرية لاحتلالها بالقوة إلى ولايته مصر، ويمكن إجمال الأسباب التي دفعت محمد علي للقيام بهذا العمل العسكري بما يلي:

أ- الأسباب غير المباشرة:

- سعي محمد علي بعد أن بدأت أحواله السياسية عقب قضائه على المماليك[5]، تأخذ طريقها إلى الاستقرار داخل ولاية مصر، فأنتهج سياسة توسعية لتحقيق طموحاته السياسية والعسكرية [6].

---

[1] محمد علي :ولد في مدينة قوله بمقدونية باليونان سنة 1770، وعين والياً على مصر سنة 1805، وهو مؤسس العائلة الخديوية، وتوفي في القاهرة سنة 1849، عن عمر يناهز 80عاماً. بلعابد، رابعة- غنجور، يمنية، *الإصلاحات العثمانية وأثارها على بلاد الشام (1808-1861)، ص28.*

[2]السلطان محمود الثاني: ابن السلطان عبد الحميد الأول، ولد في إسطنبول 1808، ويعد أول من وضع أساس الحكومة الحديثة في الدولة العثمانية، وتوفي سنة 1839م. أوغلو، عبد القادر، *السلاطين العثمانيين*، ص30

[3]ا لحركة الوهابية: حركه إصلاحية أسسها محمد بن عبد الوهاب في نجد في القرن 18، تقوم على الأخذ بصريح الكتاب والسنة، واعتبار ما لا أصل له بدعة، ويُعد كتاب التوحيد للأمام محمد بن عبد الوهاب المرجع الأول لدراستها. غنام، حسن، *تاريخ نجد*، ص81.

[4]حرب المورة وقعت بين العثمانيين والمصريين من جهة واليونانيين من جهة أخرى بعد إعلان اليونان الثورة على العثمانيين وإعلان استقلالهم، وفشل العثمانيون في القضاء عليها فاستعان السلطان بمحمد على للقضاء عليها. مانتزان، روبير، *تاريخ الدولة العثمانية، ص42.*

[5] مذبحه المماليك: واقعه شهيرة في التاريخ المصري دبرها محمد علي باشا للتخلص منهم. أبو عز الدين، *سليمان، إبراهيم باشا في سوريا*، ص23.

[6] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص 960.

- شعور محمد علي بضعف السلطان العثماني محمود الثاني وعجزه عن نشر الأمن في بلاد الشام، وعدم قدرة السلطان على حمايتها وردعهُ عنها إذا ما بدأ بتنفيذ مشروعه باحتلالها، حيث أختار محمد على الوقت الذي كانت فيه الدول العظمى منهمكة بالشؤون الأوروبية، والدولة العثمانية منهكة القوى بسبب النكبات والثورات.[7]
- حاله الصراع بين محمد علي باشا وعبد الله باشا والي صيدا[8] وتصادم مصالحهما بمساعي كل واحد منهما لضم بلاد الشام إلى ولايته.
- وقوف عبد الله باشا عائقاً أمام وصول عقل التوت القادمة من لبنان إلى مصر والاستيلاء عليها بالقوة تحدياً لمحمد علي باشا الذي كان يعتمد عليها في تنشيط زراعة التوت.
- قيام عبد الله باشا بتهريب التجارة الدولية من الجمارك المصرية وتحويلها عن طريق سيناء وابتزاز التجار المصريين، و امتناعه عن تسديد المبلغ الذي كان قد استدانهُ من محمد علي عندما طالبهُ السلطان بدفع ستين ألف للخزينة السلطانية من أجل العفو عنه.[9]
- أراد محمد علي أن يأخذ من هذه الأسباب ذريعة أمام السلطان العثماني للزحف على ولاية صيدا ليؤدب واليها، غير أن السلطان لم يكن ليوافق محمد علي باشا على عزمه هذا لعلمه بأهداف الحملة الحقيقية، فتجاهل السلطان محمد علي، فكان ردهُ بأن أعلن الخروج على السلطان العثماني .[10]

ب –الأسباب المباشرة :

- غضب السلطان محمود الثاني من محمد علي لأنه رفض تقديم المساعدة أثناء الحرب العثمانية الروسية عام 1829م، وكانت تلك الشرارة التي أشعلت نار الفتنة والقطيعة بين الباشا والباب العالي[11]، هذه النوايا السيئة التي كان يكنها السلطان لمحمد علي، أيقظت الحذر بين جوانح محمد علي الذي توقع نشوب الحرب عليه في أي وقت[12].

[7] أبو عز الدين، سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، ص68.
[8] صيدا: مدينه على ساحل البحر المتوسط تقع بين بيروت وصور. الحموي، ياقوت، معجم *البلدان*، ص 438.
[9] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص965.
[10] أبو عز الدين، سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، ص 58.
[11] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد* الشام والموقف الدولي منه، ص 344.
[12] لطيفة، سالم، *الحكم المصري في الشام*، ص20.

• كانت الظروف في (1831)، ملائمة لتنفيذ مشروعه فإن الدولة العثمانية قد خرجت من الحرب اليونانية 1827م، ثم من الحرب الروسية 1829م ضعيفة منهكة القوى، وزاد في ضعفها كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها، وقد ألغى السلطان محمود الثاني 1826م فرقة الانكشارية التي كانت قوام الجيش العثماني، وذلك لما كانت عليه من الفوضى وأبادهم، ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت لينشئ بدلاً منهم جيشاً جديداً نظامياً، في حين أن محمد علي كان على تمام الأهبة للدخول في حومة الوغى، معتمداً على الجيش النظامي الذي قضى سنوات عدة في إنشائه وتدريبه[13] فتذرع محمد علي بحجة أن كثير من الفلاحين المصريين هاجروا إلى بلاد الشام فراراً من أعباء السخرة والضرائب التي فرضها محمد علي عليهم، وتخلصاً من الخدمة العسكرية [14]، فطلب من عبد الله باشا والي صيدا بأن يُرجع المهاجرين المصريين لبلادهم، فرفض عبد الله باشا طلبه محتجاً بأن المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق بأن يقيموا أنى شاؤوا، فغضب محمد علي من هذا الجواب وكتب إليه يتوعده وينبئهُ أنه قادم ليعيدهم جميعاً يزيدون واحداً وهو عبد الله باشا بذاته.[15]

حروب محمد علي في بلاد الشام واتساع رقعة دولته:

كانت الحملة المصرية على بلاد الشام مؤلفة من ست آلايات[16] من المشاة وأربعة من الفرسان عدتهم ثلاثون ألف مقاتل[17] بقيادة إبراهيم باشا(1789–1848)[18]، واحتشد جنود الحملة فريق في ضواحي القاهرة وفريق في الإسكندرية[19]، وفي التاسع والعشرين من شهر

[13] الرافعي ، عبد الرحمن .عصر محمد علي ، ص220.

[14] هنداوي، سهام، *التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية*، ص36.

[15] الرافعي، عبد الرحمن، *عصر محمد علي*، ص 221.

[16] آلاي : مصطلح عسكري يعني كتيبة عدد أفرادها بين 1374-4547 جندياً نظامياً من المشاة . أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص970.

[17] بركات، داوود، *البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام*، ص26.

[18] إبراهيم باشا: (1789-1848) قائد مصري، الابن الأكبر لمحمد علي، عينه أبوه قائد للحملة المصرية ضد الوهابيين 1816-1819، فأخمد ثورتهم وقضى على حكمهم، ثم شارك إلى جانب السلطان محمود الثاني وأخمد ثورة اليونان، وقد وصل في فتوحاته حتى كوتاهية 1833، إلا أن التدخل الأوروبي حرمه من مواصلة زحفه. غربال، محمد شفيق، *الموسوعة العربية، مج1*، ص463.

[19] أبو عز الدين، سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، ص73.

تشرين الأول 1831، أصدر محمد علي أوامره بتحرك الحملة [20]، نحو بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر في آن واحد لمحاصرة عكا من الجهتين، وفتحت الجيوش البرية في مسيرها مدائن غزة ويافا وبيت المقدس ونابلس [21]، واستمرت القوات البرية في السيطرة على المدن حتى التقت مع القوات البحرية وضربت الحصار على عكا من البر والبحر [22]، وانتهى حصار عكا بتسليمها للجيش المصري بعد أن استمر ستة أشهر[23]، وكان سقوط عكا في 27 أيار 1832، إيذاناً ببدء الزحف الخاطف الذي قام به الجيش المصري في بلاد الشام حيث أخذت المدن الشامية تسقط في يده تباعاً [24] ثم اتجه إبراهيم باشا شمالاً قاصداً فتح دمشق ونجح في فتحها في 9حزيران 1832 [25]، فسيّر السلطان العثماني جيشاً لقتال إبراهيم بقيادة حسين باشا والتقى الجيشان في واقعة حمص، وقد كانت واقعة حمص أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصري والعثماني وجهاً لوجه وتقهقرت الجيوش العثمانية وتحصنت في مضيق بيلان [26] وانتهت واقعة بيلان بهزيمة الجيش العثماني بعد قتال دام ثلاث ساعات [27]، ثم اجتاز الجيش المصري حدود سوريا شمالاً ودخل أضنة، ثم دخل قونية[28]، وفتح الانتصار في معركة قونية أبواب إستانبول أمام جيوش إبراهيم باشا التي أصبحت على مسيرة ستة أيام، ثم تقدم فاحتل كوتاهية[29].

مواقف الدول الأوروبية من احتلال إبراهيم باشا كوتاهية :

ولما تواترت أخبار انتصار المصريين على العثمانيين واحتلالهم كوتاهية، خشيت الدول الأوروبية أن يكون قصد محمد علي باشا احتلال إستانبول وإسقاط عائلة بني عثمان والاستئثار

[20] لطيفة، سالم، *الحكم المصري في الشام*، ص40.
[21] المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص327.
[22] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ، ص345.
[23] أبو عز الدين، سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، ص91.
[24] غازي، علي عفيفي علي، *الصراع المصري العثماني والتوازن الدولي*، ص65.
[25] أبو عزالدين، سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، ص91.
[26] مضيق بيلان : من أهم مضائق جبال طوروس الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول، وله شهرته في التاريخ .المصطفى، عبد الإله أحمد، *السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام (1840-1878)*، ص99.
[27] بركات، داوود، *البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام*، ص79.
[28] قونية : مدينة في وسط تركيا الآسيوية، عاصمة سلطنة الروم السلجوقية .مجموعة باحثين، *المنجد في اللغة* والإعلام، ص559.
[29] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ص346.

بالخلافة الإسلامية فيؤدي ذلك إلى خلل في التوازن الأوروبي، وكانت روسيا أشد قلقاً من غيرها لخوفها من سقوط إستانبول في قبضة محمد علي باشا ولذلك عرضت المساعدة على الدولة العثمانية، وأنزلت فعلاً على شواطئ الأناضول خمسة عشر ألف جندي لحماية إستانبول، فاضطربت فرنسا وبريطانيا وخشيت سوء عاقبة تدخل روسيا بصفة عسكرية[30]، فعدت الدول الأوروبية تدخل روسيا أشد خطراً عليها من محمد علي باشا لذلك أسرعت إلى توحيد كلمتها بضرورة حماية الدولة العثمانية.[31]

كانت فرنسا تخشى تطورات الأمور وأمام خوفها من قبول السلطان مساعدة روسيا أصدرت الحكومة الفرنسية أوامرها في 23 كانون الثاني 1832م، من أجل تعزيز أسطولها في البحر المتوسط رغم تصريح محمد علي بأنه مهما بلغت الانتصارات التي أحرزها ابنه إبراهيم باشا على الصدر الأعظم محمد رشيد باشا فأنه لا يسعى إلى خلع السلطان[32]، وقد جاء تقدم القوات المصرية باتجاه بلاد الشام يكشف حقيقة مواقف الدول الأوروبية المتباينة حيث تمثلت ب:

- ظهور أوروبا الجديدة بعد سقوط نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte)[33] وقيام تجربة دستورية في فرنسا على غرار التجربة البريطانية، مع تمسك فرنسا بسياسة التوسع الخارجية للحصول على المزيد من المكاسب.
- يقظة الشعور القومي لدى شعوب إقليم البلقان الصغيرة التي أدت إلى استقلال رومانيا 1820م، المكونة من إقليمي الافلاق والبغدان العثمانيين بمساعدة روسيا، ثم جاءت ثورة اليونان وحصولها على الاستقلال بمساعدة الدول الأوروبية بما فيها روسيا وفرنسا وبريطانيا.
- تضارب السياسات الأوروبية تجاه الدولة العثمانية (المسألة الشرقية) من التدخل الروسي.[34] ويمكن القول أن الدبلوماسية الروسية والتحرك النشط الذي قامت به كان

[30] المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص 329.
[31] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ص 347.
[32] حسين، يوسف عمر يوسف، *الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية*، ص 53.
[33] نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) (1769-1821): ولد في 15 أب سنة 1769، في مدينة أجاكسيو في جزيرة كورسيكا ثم دخل المدارس الحربية وترقى إلى وظيفة ملازم ثاني طوبجة سنة 1785، واشتهر في تخليص مدينة طولون من بريطانيا، ثم عين قائداً عاماً للجيش المحارب في إيطاليا سنة 1796.المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص372.

ينبع من إدراكها لخطورة التحرك المصري باتجاه العاصمة إستانبول وتهديدها للمصالح الروسية، مما يمنح فرنسا الفرصة لزيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية ومساندتها لمحمد علي باشا، لذلك نجد أن روسيا سارعت في عرض مساعدتها على الدولة العثمانية، لقد كان محمد علي باشا مدركاً لحقيقة الموقف الروسي وهيمنة القيصر نيقولا الأول(Nicholas I) [35] على السلطان العثماني محمود الثاني غير أنه كان يراهن على مساندة فرنسا وبريطانيا له، في حين أن السلطان العثماني شعر بالقوة نتيجة قدوم القوات الروسية فطلب من محمد علي باشا سحب جيشه، و إبرام معاهدة سلام معه وفي حال تحقيق ذلك تتعهد الدولة العثمانية بمغادره الأسطول الروسي من البوسفور، استشعرت بريطانيا وفرنسا خطورة قدوم القوات الروسية، فطلبتا من محمد علي الانسحاب من المناطق التي سيطر عليها، كما تدخلت فرنسا وبريطانيا لدى السلطان لتسوية الوضع نتيجة تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية وما يشكله من مخاطر على مصالحهما[36]، كما خشيت النمسا من التدخل العسكري الروسي لصالح الدولة العثمانية، مما يسمح لروسيا بالتوغل في المناطق المتاخمة لها [37]، فأرسل السلطان محمود الثاني خليل باشا[38] موفداً خاصاً إلى محمد علي باشا الذي تجاهل الضغط الفرنسي وظل متمسكاً بمطالبه بامتداد نفوذه إلى المناطق التي وصلتها الجيوش المصرية في بلاد الشام وأضنة[39]، وإزاء تأزم الموقف وخاصة بعد إعلان إبراهيم باشا عزمه الزحف على إستانبول إن لم يستجب السلطان لمطالب والده، فقد تجددت مساعي

---

[34] العربيات، غالب عبد أحمد – شنيكات، خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (1831- 1841م)*، ص387.

[35] نيقولا الأول (Nicholas I): تولى العرش بعد موت إسكندر سنة 1825، وكانت فترته أشد الفترات التي شهدتها روسيا في عهده، فقامت ثورة بولندا التي قضى عليها بشدة. زوليخة، صفية – حسناوي، خديجة، *المواجهة الأوروبية المصرية في عهد محمد علي*، ص46.

[36] المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص 329.

[37] غازي، علي عفيفي علي، *الصراع المصري العثماني والتوازن الدولي*، ص71.

[38] خليل باشا : من أصل قوقازي عمل ضابطاً بالجيش النظامي وشارك في إخماد الانتفاضة اليونانية، منح لقب باشا نظير ما أبداه من شجاعة وعلى مدة ستة أشهر عمل سفيراً لدى روسيا، فور عودته عيّن في منصب قائد الأسطول .فنادولينا، أنينل ألكسندرو، *الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية*، ص31.

[39] أضنة: هي مدينة بجنوبي تركيا، عاصمة ولاية سيهان على الضفة اليسرى لنهر سيهان، تعد رابع مدن تركيا حجماً ومركز تجاري هام. غربال، محمد شفيق، *الموسوعة العربية الميسرة*، مج *61*، ص72.

سفراء الدول الأوروبية للضغط على السلطان من جهة ووالي مصر من جهة أخرى، لإقرار مصالحة بينهما وأثار تشدد محمد علي باشا بمطالبه توتر بريطانيا التي أخذت ترمي بثقلها لإنهاء الموقف وكبح جماح والي مصر، فأرسلت أسطولها إلى ميناء الإسكندرية لإجبار محمد علي باشا لعقد مصالحة بينه وبين السلطان محمود الثاني لوقف خطر التمدد الروسي.

اتفاق كوتاهية (8 نيسان 1833):

اضطر الباب العالي أمام الضغوط المستمرة من قبل فرنسا وبريطانيا إلى الإذعان لمطالب محمد علي باشا فأرسل مبعوثه مصطفى رشيد إلى إبراهيم باشا في كوتاهية للتفاوض بشأن عقد مصالحة بين الطرفين بوساطة فرنسية مثَّلها فيها سكرتير سفارتها في إستانبول البارون دو فارين (Duvarin)[40] ،وبعد مفاوضات دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح في 8 نيسان 1833م [41]، وهو المعروف باتفاق كوتاهية (Kutahya)[42]، تم فيه الاتفاق على النقاط التالية:

1- أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.

2- يعطى محمد علي ولاية مصر مدى حياته.

3- يعين إبراهيم بن محمد علي والياً على إقليم أضنة وهو الإقليم المتاخم للأناضول[43].

4- تعيين محمد علي والياً على بلاد الشام وجزيره كريت[44].

وقد مارست الدول الأوروبية ضغوط كبيرة على السلطان العثماني لكبح جماح محمد علي وإلزامه بالتوقف عن تهديد عاصمة الدولة العثمانية والقبول بنص اتفاقية كوتاهية 1833، الذي يحقق المصلحة الأوروبية بالدرجة الأولى[45].

---

[40] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حاله الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص 980.

[41] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ص348.

[42] كوتاهية (Kutahya): تقع في الأناضول، مركز لواء كوتاهية، وسلطان أونو في ولاية "جداوندكار". س.موستراس، *المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية*، ص428.

[43] شاكر، محمود، *التاريخ الإسلامي" العهد العثماني"*، اص170.

[44] غازي، علي عفيفي علي، *الصراع المصري العثماني والتوازن الدولي*، ص80.

معاهدة هنكار اسكله سي(8 تموز 1833):

و في 6 أيار 1833م أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً أعلن فيه تثبيت محمد علي باشا على مصر و كريت وإسناد ولاية سوريا إليه وتجديد ولاية إبراهيم باشا على الحجاز وتخويله إدارة إقليم أضنة[46]، و لم تكن الدولة العثمانية في حقيقة الأمر مقتنعة تماماً بنوايا محمد علي للسلام رغم توقيع صلح كوتاهية، كما كان واضحاً للدولة العثمانية أن فرنسا وبريطانيا قد نأتا بنفسيهما منذ البداية عن مسألة الدفاع عن الدولة العثمانية، وربما هذا ما دفع الدولة العثمانية للتفكير فيما إذا قرر محمد علي مهاجمتها مره أخرى بعد انسحاب القوات الروسية، كما أن روسيا لم تكن لترضى بأن تخرج صفر اليدين وهي الدولة الوحيدة التي أرسلت قواتها براً وبحراً لنجدة الدولة العثمانية لذلك قررت روسيا الضغط على الدولة العثمانية من خلال التشكيك بنوايا محمد علي[47]، ولم يمض شهرين على عقد صلح كوتاهية حتى أقدم السلطان العثماني على عقد معاهدة هنكار اسكله سي[48] الدفاعية السرية مع روسيا[49] في8تموز 1833م [50]، ومدة المعاهدة ثماني سنوات وقد أعلنت السلام والصداقة بين الدولتين وتعهدت بالوصول إلى اتفاق في كافة المسائل المتعلقة بالسلم والأمن وبإعطاء المساعدات العسكرية، وكان يكمن الهدف الحقيقي الروسي وراء توقيع المعاهدة بأغلاق المضائق أمام أي سفينة حربية عدا الروسية منها[51]، وكذلك عقدها السلطان آملاً في التنصل من شروط الصلح في كوتاهية، والانتقام من محمد علي باشا وتحرير أهم أملاك الدولة العثمانية في أضنة وبلاد الشام منه، استشعرت بريطانيا وفرنسا خطورة اتفاقيه هنكار اسكلة سي فأصابهما الخوف على مصالحهما في المنطقة واستحواذ روسيا على أملاك الدولة العثمانية، فاحتجتا على الاتفاقية برمتها والتي تجعل من

[45] جلول، بوقراف، *العلاقات* المصرية العثمانية في عهد محمد علي باشا ومواقف الدول الأوروبية منها (1805-1841)،،ص 1355

[46] الرافعي، عبد الرحمن، *عصر محمد علي*، ص 256.

[47] حسين، يوسف عمر يوسف، *الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية*، ص58.

[48] أنظر الملحق رقم (1).

[49] هنداوي، سهام، *التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية*، ص37.

[50] المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص 330.

[51] حسون، علي، *العثمانيون والروس*، ص 106.

الدولة العثمانية رهينة للحماية الروسية.[52] فبعث وزير الخارجية البريطاني بالمرستون (Palmerston) مذكرة احتجاج ضد التحالف الروسي داعياً إلى إلغاء اتفاقية هنكار اسكله سي[53] وحاولت فرنسا منع محمد علي من تجديد الصدام مع الدولة العثمانية كي لا يعطي روسيا الفرصة لوضع المعاهدة حيز التنفيذ[54]، وفي الوقت الذي كان فيه محمد علي يسعى بكل ما يملك من قوة إلى إنهاء حالة الصراع المستمر بينه وبين السلطان العثماني الذي كان لا يدخر جهداً لهزيمته والتنصل من اتفاق كوتاهية، فبدأ يفكر بإعلان استقلاله وأن ينفصل نهائياً عن الدولة العثمانية، بدأ محمد علي باشا يسعى جاهداً لكسب التأييد الأوروبي لما عزم على تنفيذه فلم يجد أذاناً صاغية عند كل من حليفته فرنسا وأيضاً عند بريطانيا اللتين توافقت مصالحهما بضرورة إبطال مفعول معاهدة هنكار اسكله سي، وأصبح كل همهما وقف الخطر الروسي في البحر الأسود ومضائق الدردنيل[55] والبوسفور[56]، أدركت بريطانيا خطورة ما يفكر فيه والي مصر على مصالحها، فذهبت لتأييد مطالب السلطان العثماني لإنهاء حكم محمد علي باشا في بلاد الشام وأضنة وتحجيم نفوذه في مصر، وصل الأسطول البريطاني إلى مالطا في 30 تشرين الأول 1833م، وأما الموقف الفرنسي فقد توافق مع الموقف البريطاني[57]، كذلك خشي مترينخ[58] على النمسا من مضاعفات معاهده هنكار اسكله سي، اجتمع الامبراطور النمساوي فرنسيس الثاني (Francis II) مع القيصر الروسي نيقولا الأول في 10 أيلول 1833 في مونشنجراتز بناء على دعوة من قبل مترينخ ، وتم الاتفاق على توقيع معاهدة مونشنجراتز في 18 أيلول 1833م، التي تضمنت تعهد روسيا والنمسا المشترك للحفاظ على

---

[52] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية*، ص 983.

[53] العربيات، غالب عبد أحمد – شنيكات، خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام*، ص 365.

[54] حسين، يوسف عمر يوسف، *الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية*، ص 59.

[55] الدردنيل: مضيق يقع بين شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى، ويصل بحر إيجة ببحر مرمرة .المصطفى، عبد الإله أحمد، *السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام*، ص29.

[56] البوسفور: مضيق طوله 27كم، يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة، ويفصل بين تركيا الآسيوية وتركيا الأوروبية .المصطفى، المرجع السابق، ص29.

[57] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص 987.

[58] مترينخ: وزير الخارجية للإمبراطورية النمساوية في الفترة من 1809 الى 1848م. غربال، محمد شفيق، *الموسوعة العربية الميسرة، المجلد 2*، ص 576.

وجود الدولة العثمانية، ومناهضة أي خطة يكون من شأنها إلحاق الأذى بحقوق السلطة العليا في الدولة العثمانية، تصاعدت الخلافات مجدداً بين بريطانيا وفرنسا من جهة ومع روسيا والنمسا من جهة أخرى في شهري شباط وأذار 1834 وذلك بسبب الأخبار المتواترة عن قيام روسيا بزيادة استعداداتها العسكرية في البحر الأسود وبحر البلطيق وبخاصة بعد الكشف عن البنود السرية في معاهدة مونشنجراتز بشكل أظهر وكأن هناك مؤامرة روسية نمساوية ضد بريطانيا وفرنسا[59]، و تغلغل الجيش العثماني في 21 نيسان 1839م في الأراضي السورية ونشبت معركه كبيرة بين الطرفين صباح يوم 24 حزيران 1839، فكانت واقعة نصيبين التي هزم فيها الجيش العثماني[60]، وكان وقع هذه المعركة أليماً على يلي الدولة العثمانية، لأنها خاتمة الهزائم التي حاقت بجيوشها في معاركها المتعاقبة مع الجيش المصري[61]، لقد حل بالعثمانيين بعد هزيمة نصيبين كارثتان كبيرتان ففي الأول من تموز 1839م توفي السلطان محمود الثاني قبل أن يعلم بالهزيمة المنكرة، وخلفه السلطان عبد المجيد[62]، الذي حاول أن يجنح للسلم فعرض موافقته على تخويل محمد علي حكم مصر وراثياً و إقرار سلطانه على بلاد الشام وجزيرة العرب، وكان محمد علي باشا شبه موافق على هذا الصلح بشرط إبعاد الأطراف الأجنبية.[63]

مواقف الدول الأوروبية بعد واقعة نصيبين:

بعد معركة نصيبين 1839، وما ترتب عنها من إخلال بموازين القوى العالمية أدركت القوى الأوروبية ضرورة القضاء على محمد علي أو على الأقل انسحابه من بلاد الشام[64] فوقفت الدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعاً لاختلاف أطماعها، و بدأت بالضغط على محمد علي

[59] حسين، يوسف عمر يوسف، *الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية*، ص 63.
[60] بدراوي، طارق، *مولتكة أحد عظماء المفكرين الاستراتيجيين في القرن 19م*، ص15.
[61] الرافعي، عبد الرحمن، *عصر محمد علي*، ص 280.
[62] السلطان عبد المجيد الأول (1822-1861)، تولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد علي على الجيش العثماني. المحامي، محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، ص529.
[63] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ص 353.
[64] جلول، بوقراف، *العلاقات المصرية العثمانية في عهد محمد علي باشا ومواقف الدول الأوروبية منها (1805-1841)*،ص 1355.

مطالبة إياه إيقاف تقدم قواته و أن لا يتجاوز جبال طوروس[65]، و رابط الأسطول الفرنسي والبريطاني قبالة المضائق خشية دخول الأسطول الروسي إلى إستانبول، بالمقابل خشيت روسيا من تطور الموقف محلياً، ورأت في حركة محمد علي خروج على الشرعية التي يمثلها السلطان عبد المجيد، كما خشيت أن يستولي محمد علي على كامل أراضي الدولة العثمانية و يقيم إمبراطورية فتية محلها[66] كما رأت في مثل هذا النصر تفوقاً لسياسة فرنسا ومصالحها في الشرق لذلك اجتمع سفراء كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا في إستانبول وقاموا بتوجيه مذكرة للسلطان العثماني، طلبوا منه ألا يقرر شيئاً في أمر المسألة المصرية إلا بعد اطلاعهم[67]، قبل السلطان مذكرة سفراء الدول الأوروبية واجتمع أولئك السفراء مع الصدر الأعظم وتداولوا فيما يجب إعطاؤه لمحمد علي، وسارعت النمسا في أوائل 1840م إلى طلب عقد اجتماع للدول الأوروبية في فيينا لتسويه المسألة المصرية فاستجابت بريطانيا لطلبها وتقرر عقد المؤتمر في لندن وأن يكون للباب العالي مندوب فيه، وانتهى المؤتمر باتفاق بريطانيا و روسيا والنمسا لإرجاع محمد علي إلى مصر، و في 15 تموز 1840م وقعت الدول الثلاث ومندوب الباب العالي معاهدة لندن[68].

معاهده لندن 1840:

وفي 15 تموز 1840 تم عقد معاهدة لندن التي تضمنت عدداً من القرارات والشروط ومن أبرزها:

إلزام محمد علي باشا بإعادة المناطق التي سيطر عليها من الدولة العثمانية في التدخل الأخير، و الإبقاء على القسم الجنوبي من سوريا ما عدا عكا، و أن يكون لبريطانيا والنمسا الحق في محاصرة موانئ سوريا، وعدم السماح لمن يريد الدخول في طاعة المصريين على حساب الدولة العثمانية، و ألا يكون لأحدى الدول الحق بإدخال مراكبها إلى البوسفور ما دامت

[65] طوروس: سلسلة جبلية جنوب تركيا، تمتد موازية لساحل البحر المتوسط، جنوب آسيا الصغرى. غربال، محمد شفيق، الموسوعة *العربية الميسرة، مج 2*، ص116.

[66] قطاوي، رينيه - قطاوي، جورج، محمد *علي وأوروبا، ص8.*

[67] العربيات، غالب عبد أحمد – شنيكات، خالد حامد. طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (1831-1841)*، ص398.

[68] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر*، ص 995.

إستانبول غير مهددة، و أن يلزم مندوبو الدول التوقيع على المعاهدة في مده لا تزيد على شهرين، و اتفقت الأطراف المشاركة في المؤتمر على مساندة السلطان إذا لم يقبل محمد علي باشا بالشروط المفروضة عليه[69]، وفي نهاية الأمر استقر رأي بالمرستون (Palmerston)[70] وزير خارجية بريطانيا على عقد معاهدة وفاق تضم الدول الأربع (روسيا– بريطانيا– بروسيا– النمسا) بعد استبعاد فرنسا.[71] وأُبرمت هذه المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا فقد فوجئت الحكومة الفرنسية بخبرها و كان من نتائجها أن هاجت الخواطر فيها وتوترت العلاقات بينها وبين بريطانيا وأخذت فرنسا تحرض محمد علي باشا على نبذ قرارات الدول ولكنها أدركت أخر الأمر أنه لا قبل لها بأن تخوض غمار حرب أوروبية، فتراجعت وتركت مصر وحدها أمام الدول المؤتمرة [72]، وما أن علم محمد علي ببنود الاتفاقية حتى استشاط غضباً ورد بأن ما أخذ بالقوة لا يسلمه إلا بالقوة[73]، وهنا تجرأ السلطان العثماني ليصدر فرمان خلع محمد علي باشا للمرة الرابعة وأعلن محمد علي باشا رفضه شروط معاهده لندن مؤكداً عدم إذعانه لرغبة التحالف الأوروبي، وأتم استعداداته الحربية تحسباً لأي طارئ [74]، و إزاء موقف محمد علي الرافض، ذهبت قناصل الدول الأربع (بريطانيا– روسيا– بروسيا– النمسا) إلى مقر محمد علي باشا وابلغوه قرارات دولهم، واستمهلوه عشرة أيام وأن فرنسا لا تستطيع مساعدته وتطبيقاً لعامل الزمن المنصوص عليه في بنود الملحق فقد عاد القناصل إلى محمد علي وابلغوه أنه لم يبقَ له حق في ولاية عكا لأنه لم يعلن قبولهُ خلال الأيام العشرة الأولى [75]، وأن الدول الأوروبية لن تسمح له إلا في ولاية مصر وأمهلوه عشرة أيام أخرى فإن لم يفعل تكون الدول الأوروبية غير مسؤولة عن النتائج وقامت هذه الدول بتشكيل قوة عسكرية مشتركة لإلزام محمد علي باشا بتنفيذ

[69] العربيات، غالب عبد أحمد -شنيكات، خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (1831-1841)*، ص400.

[70] بالمرستون (1784-1865): سياسي ورجل دولة بريطاني اسمه بالولادة هنري جون تمبل، اكتسب اللقب عام 1807، أصبح وزيراً للخارجية (1830-1841)، أشرف على سياسة بريطانيا المعادية لمحمد علي في مصر وبلاد الشام. الكيالي، عبد الوهاب، *الموسوعة السياسية، ص482.*

[71] بلال، هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، ص 354.

[72] الرافعي، عبد الرحمن، *عصر محمد علي*، ص 292.

[73] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر وموقف الدول الأوروبية منه*، ص 1002.

[74] العربيات، غالب عبد أحمد – شنيكات، خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (1831-1841)*، ص401.

[75] هنداوي، سهام، *التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية*، ص38.

المعاهدة، ووصلت البحرية المصرية في 19 أيلول 1840 إلى مدينة بيروت، وتنبهت قوات الحلفاء إلى ضرورة شل القوة البحرية المصرية وتحييدها عن أرض المعركة فهاجمت ميناء بيروت الذي يشكل القاعدة الأساسية للجيش المصري واستمرت في مقارعه إبراهيم باشا مما أسفر عن قيام معركة ارتد على أثرها إبراهيم باشا إلى البقاع في حين استسلمت الحامية المصرية في بيروت التي كان لسقوطها نتائج كارثية على الموقف العسكري للقوات المصرية أدت إلى انسحاب الحاميات المصرية من أضنة واللاذقية و طرابلس وعكا، شعرت بريطانيا كزعيمة لقوات التحالف الأوروبي بنشوة انتصاراتها المتتالية التي حققتها ضد الجيوش المصرية في 21 تشرين الثاني 1840 وقامت بالضغط على محمد علي لقبول قرارات معاهدة لندن والانسحاب من بلاد الشام بأقل خسائر ممكنة، و في 27 تشرين الثاني تم التوصل إلى عقد اتفاق مع محمد علي باشا[76]، ونص الاتفاق على تعهد محمد علي بإجلاء قواته عن إيالات الشام جميعها وإعادة الأسطول العثماني إلى الدولة العثمانية مقابل منحه الحكم الوراثي على مصر، وتم تثبيت محمد علي باشا في باشوية وراثية في مصر تحت سيادة السلطان العثماني واتفقت القوى مجتمعة على إغلاق البوسفور والدردنيل أمام السفن الحربية الأجنبية كافة، ما دامت الإمبراطورية العثمانية في سلام.[77]

الخاتمة:

حاول محمد علي باشا من خلال حروبه مع الدولة العثمانية في بلاد الشام إقامة إمبراطورية عربية بحكم أنه يسيطر على الجزء العربي من الدولة العثمانية ونجح في بناء دولة لها مؤسساتها السياسية وأوجد توازناً حقيقياً بين اللامركزية الإدارية العثمانية والاستقلال الذاتي المصري إلا أن وجود الدولة المصرية بقوتها على الساحة الدولية أصبح يهدد مصالح الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا التي وجدت في سياسة محمد علي باشا تهديداً لسيادتها في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وخطراً لمصالحها على طريق الهند لذلك تكاتفت الدول الأوروبية لإنهاء الوجود المصري في بلاد الشام.

[76] أبو صيني، عبد الحميد محمد، *حالة الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه*، ص 1005.

[77] العربيات، غالب عبد أحمد – شنيكات، خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري في بلاد الشام (1831-1841)*، ص402.

طويت صفحة الحكم المصري في بلاد الشام بجلاء الجيش المصري عنها، وأصبحت ملكاً للتاريخ، حيث أخفق محمد علي باشا في تحقيق حلمه بتكوين إمبراطورية عربية تحت حكمه تقف حاجزاً بينه وبين الدولة العثمانية، وذلك بسبب تحالف الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية ليس حباً بها وإنما لتحقيق مصالحها وأطماعها فيها.

استنتاجات:

-غضَّ محمد علي النظر عن التفاهم مع السلطان في الوقت الخاطئ، فانهار مشروعه النهضوي ووحدة مصر مع بلاد الشام، فشهدت المنطقة العربية منعطفاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً خطراً.

-عقب انتصار محمد علي على القوات العثمانية، قررت الدول الأوروبية أن تقف بشدة بوجهه وفي 1840، وقعت معاهدة لندن التي تقرر فيها مصير محمد علي، وفرضتها عليه الدول الأوروبية وأجبرته بها على الانكفاء داخل حدود مصر ووضعت مصر مرة أخرى تحت مظلة الدولة العثمانية مع منحها وضعاً متميزاً عن باقي الولايات التابعة لها وهو ما تمثل في حق ولاية العهد لأسرة محمد علي.

-كان للصراع المصري العثماني دوراً بارزاً في إعادة صياغة التوازن الدولي الأوروبي في منطقة المشرق العربي، فتناولت الدراسة إرهاصات التدخل الأوروبي في شؤون الدولة العثمانية لتلعب أقوى أدوارها في الحفاظ على الأمن الأوروبي في أضعف مراحل الدولة العثمانية التاريخية، والحد من توسعات محمد علي باشا التي هددت مصالحها التجارية والاستعمارية في الشرق.

باختصار حولت التدخلات الأوروبية الصراع المصري العثماني من مجرد مواجهة داخلية بين والٍ متمرد وسلطانه إلى مسألة شرقية دولية انتهت بتقليص نفوذ مصر وإعادة وضعها داخل الحدود التي رسمتها القوى الاستعمارية، وبعد أن اتضحت لنا أبعاد المصالح والرؤى الأوروبية وجب علينا أن نقر بأن الدول الأوروبية بأطماعها حقيقة ماثلة أمامنا وأصبحنا نراها رأى العين حتى يومنا هذا.

المصادر والمراجع:

المراجع:

1) أبو عز الدين. سليمان، *إبراهيم باشا في سوريا*، المطبعة العلمية، بيروت، 1929م.

2) أوغلو. عبد القادر ده، *السلاطين العثمانيين*، ترجمة محمد جان، دار سخون للنشر والتوزيع، تونس، 1990م.

3) بركات. داود، *البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتحه الشام*، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012م.

4) حسون. علي، *العثمانيين والروس*، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق، 1982م.

5) الرافعي. عبد الرحمن، عصر محمد *علي*، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1989م.

6) شاكر. محمود، *التاريخ الإسلامي" العهد العثماني"*، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي، ج8، 2000م.

7) غازي، علي عفيفي علي، *الصراع المصري العثماني والتوازن الدولي*، الطبعة الأولى، قنديل، الإمارات العربية المتحدة، 2017م.

8) غنام. سليمان، *تاريخ نجد*، الطبعة الرابعة، دار الشروق، القاهرة، 1994م.

9) الغنام، سليمان بن محمد، *قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840)*، تهامة للنشر، جدة، السعودية، ط1، 1980م.

10) المحامي، فريد. محمد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، الطبعة الثانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بيروت، 2012م.

11) فنادولينا، أنينل ألكسندرو، *الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية*، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م.

12) قطاوي، رينيه – قطاوي، جورج، محمد *علي وأوروبا*، دار الكتب والثقافة القومية، القاهرة، 2008 م.

13) لطيفه. سالم، *الحكم المصري في الشام*، الطبعة الأولى، مدبولي، القاهرة، 1990م.

14) مانتزان. روبير، *تاريخ الدولة العثمانية*، ترجمة بشير الساعي، الطبعة الأولى، دار الفكر، القاهرة، ج2 1993م.

15) مجموعة باحثين، *المنجد في اللغة*، ط29، دار المشرق، بيروت، 2008م.

الموسوعات:

1) غربال، محمد شفيق، *الموسوعة العربية الميسرة*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م.

2) الكيالي، عبد الوهاب، الموسوعة السياسية، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الهدى، بيروت، د.ت.

الدوريات العلمية:

1) بلال. هدى علي، *الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه*، مجلة أبحاث كليه التربية، المجلد 10، العدد4، 2011م.

2) جلول، بوقراف، العلاقات المصرية العثمانية في عهد محمد علي باشا ومواقف الدول الأوروبية منها (1805–1841)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج 13، ع2، 2020.

3) العربيات. غالب عبد أحمد– شنيكات. خالد حامد طاهر، *الموقف الروسي من التدخل المصري لبلاد الشام*، مجله الدراسات التاريخية، العددان 117–118، كانون الثاني– حزيران، 2012م.

4) يوسف عمر. يوسف حسين، *الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسالة المصرية*، المجلة الأدبية للتاريخ والآثار، دراسة في ضوء وثائق وزارة الخارجية البريطانية غير المنشورة، جامعة الأردن، المجلد 11، العدد 2، 2017م.

5) أبو صيني. عبد الحميد محمد، حاله الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وولاية مصر، دراسة في وثائق الحكم المصري 1831–1840م، الجامعة الهاشمية، 2016م.

6) بدراوي. طارق، مولتكة أحد عظماء المفكرين الاستراتيجيين في القرن 19، جريدة أبو الهول، العدد 7، 2019م.

رسائل ماجستير:

1) بلعابد، رابعة – غنجور، يمنية، الإصلاحات العثمانية وأثارها على بلاد الشام، رسالة ماجستير بإشراف برمكي محمد، جامعة أدرار، الجزائر، 2015م.
2) زوليخة، صفية – حسناوي، خديجة، المواجهة الأوروبية المصرية في عهد محمد علي، رسالة ماجستير، إشراف د. نادية طرشون، جامعة يحيى فارس بالمدية، الجزائر، 2015م.
3) المصطفى، عبد الإله أحمد، السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام (1840– 1878)، رسالة ماجستير، إشراف د. حسام النايف، جامعة دمشق، سوريا، 2014م.

المعاجم:

1) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت، مجلد 3، مجموعة باحثين، المنجد في اللغة والإعلام، الطبعة 29، دار المشرق، بيروت، 2008م.
2) س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشحادات، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، 2002م.

الملحق رقم (1):

٣ ـ معاهدة التحالف الدفاعي بين الأمبراطورية العثمانية وروسيا المعروفة بمعاهدة Ankiar Skelessi في ٨ يوليو سنة ١٨٣٣ م

المادة الاولى :

سيكون هناك سلام وصداقة وتحالف إلى الابد بين صاحب الجلالة امبراطور كل الروس وصاحب الجلالة امبراطور العثمانيين وامبراطوريتيهما ورعاياهما فى البر والبحر . والهدف الوحيد لهذا التحالف هو الدفاع المشترك عن الدولتين ضد كل اعتداء ، يلتزم صاحبا الجلالة بأن يتفاهما بدون تحفظ على كل المواضيع التى تتعلق باطمئنانهما وسلامتهما . وبأن يقدم كل منهما للآخر لهذا الغرض كل عون مادى وكل مساعدة فعالة .

المادة الثانية :

إن معاهدة التحالف الدفاعى الحاضرة تؤيد وتكرس حرفا حرفا معاهدة السلام المعقودة فى ادرنه Adrianopleفى ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ وكذلك جميع المعاهدات التى تمت وقتئذ والميثاق الموقع فى بطرسبرج Petersburgفى ١٤ ابريل سنة ١٨٣٠ وكذلك التوصية التى تمت فى استانبول فى ٩ و ٢١ يوليو سنة ١٨٣٢ بشأن اليونان .

المادة الثالثة :

عملا بمبدأ الدفاع المشترك الذى هو أساس معاهدة التحالف الحاضرة وبسبب الرغبه المخلصة فى المحافظة على استقلال الباب العالى التام فان صاحب الجلالة ملك كل الروس يتعهد فى حالة حدوث ظروف تستدعى لاسمح الله ، من الباب العالى طلب المساعدة البرية

والبحرية من روسيا ، بان يقدم له برا وبحرا كل الجيوش التى يجدها الفريقان المتعاقدان ضرورية وقد تم الاتفاق على أن تكون هذه الجيوش والوحدات التى يطلب الباب العالى نجدتها تحت تصرفه .

المادة الرابعة :

وانسجاما مع ماذكر اعلاه فان نفقات تموين الجيوش البرية والوحدات البحرية التى يقدمها احد الفريقين لمساعدة الآخر تكون على عاتق الفريق الذى يطلب المساعدة ..

المادة الخامسة :

إن فى نية كل من الفريقين المتحالفين أن تستمر هذه المعاهدة إلى اطول فترة ولكن ظروفا جديدة قد تطرأ فتقضى بإدخال بعض التعديلات عليها فتحسبا لهذه الظروف والتعديلات اتفق الطرفان على جعل مدة هذه المعاهدة ثمانى سنوات تبدأ من اليوم الذى يتم فيه توقيع صاحبى الجلالة عليها . وقبل ان تنقضى هذه المدة يتداول الفريقان ويتفاهما على تجديدها وفقا للظروف والاحوال .

المادة السادسة :

يتم اقرار هذا المعاهدة من قبل كل من الفريقين العاليين ويجرى تبادل وثائقها فى الاستانة وذلك بعد مضى شهرين على توقيعها أو قبل ذلك إذا أمكن .

وهذه الوثيقة المؤلفة من ستة بنود قد تم وضعها فيما بيننا على نسختين ذيلها كل منا بتوقيعه وخاتمه عملا بالصلاحيات المطلقة المعطاة له واحتفظ كل من الجانبين بنسخة ..

مادة سرية مستقلة

قضت المادة الاولى من معاهدة التحالف الدفاعى المعقودة بين البلاط الامبراطورى الروسى والباب العالى بأن يقدم كل من الفريقين المتحالفين للآخر المساعدات المادية الأكثر فعالية لتأمين سلامة المملكتين ولكن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية رغبة منه فى أن لا يثقل كاهل الباب العالى العثمانى بتحميله اعباء هذه المساعدات ويكتفى من حليفه باقفال مضيق الدردنيل أى بأن لا يسمح لأى سفينة حربية أجنبية أن تدخله لاى سبب من الاسباب .

ويكون لهذه المادة السرية المستقلة ذات القيمة والقوة اللتين لمواد المعاهدة وهى جزء منها له مثلها صفة الالزام ..

الغنام، سليمان بن محمد، *قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (1811-1840)*، تهامة للنشر، جدة، السعودية، ط1، 1980م، ص150.